الباب الثالث

حضهم الرجال على الوصاة بالنساء

وما دام هذا هو مركز المرأة فلا جرم أن يحضوا على الوصاة بها والإشفاق عليها .

* * *

جاء فى خطبة الوداع [1] مما يخص النساء وأما بعد أيها الناس ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا ؛ فإنهن عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئا ؛ وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ؛ فإن فعلن ذلك فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

قوله « ص » فإنهن عندكم عوان فعوان جمع عانية وهى الأسيرة ؛ تقول (ص) إنما هن عندكم بمنزلة الأسرى .

روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إنما النكاح رق ، فلينظر امرؤ من يرق كريمته ؛ وقالت امرأة من بنى عامر بن صعصعة زوجت فى طيء :

تحمدن الدهر أخت أخالها ولا ترثين الدهر بنت لوالد

---

(١) هى خطبة سيدنا رسول الله فى آخر حجه حجها ، وسميت كذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحج بعدها .

هُمُ جَمَعُوهَا حَيْثُ لَيْسَتْ بِحُرَّةٍ وَهُمْ طَرَحُوهَا فِى الأَقَاصِى الأَبَاعِدِ

وهكذا كانوا يَعُدُّون الزوجَةَ كالأسيرَة أو كالرقيق المملوك ، ومن ثَمَّ كانوا يُحِنُّونَ على الوَصَاةِ بها والرَّحْمَة لها والاشفاق عليها ، ومن ثم ترى هذه العربيَّة تنْعَى على الآباء والأخوة عليكم - تزويجَهم — بناتِهم ، وتطريحهم إياهن فى الأقاصِى الأباعد ، وإنهم لذلك لا يستحقون حمدا وثناء منهن فى حياتهم ، ولا رثاء إذ هم يموتون ، ولكن ما الحيلة وإنما هى سنة الله فى خلقه ! وبعد فسكينة حقاهى المرأة لو فكر الرجال ، وهى لذلك حقيقة بالعطف والرحمة والرثاء .

وقد ذهب بعضهم إلى أبعدَ من أنَّ النكاحَ رِقٌّ فجعَلَه وَأداً لبناتِهم .

قال شاعر الحماسة :

تَبَغَّى ابنُ كُوزٍ والسَّفاهَةُ كاسْمِها لِيَسْتادَ مِنَّا أنْ شَتَوْنا لَيَالِيا

فَما أكْبَرُ الاشياءِ عِنْدِى حَزَازَةً بأنْ أُبْتَ مَزْرِيًّا عليكَ وَزارِيا

وَانَّا عَلَى عَضِّ الزَّمانِ الذي تَرَى نُعالِجُ مِن كُرْهِ المخَازِى الدَّواهِيا

فَلاَ تَطْلُبَنْها يا ابْنَ كُوزٍ فإنَّهُ غَذَا النَّاسُ مُذْ قامَ النَّبِيُّ الجَوارِيا

وَإنَّ التى حُدِّثْتَها فى أُنُوفِنا وَأعْناقِنا مِنَ الإباء كما هِيا

« يقول هذا الحماسىُّ — وكانَ رجلٌ يُسَمَّى يزيد بن حُذيفةَ بن كوز الأسدى قد خَطَبَ إليه ابنَتَهُ فأبى هذا الحماسىُّ وقال — : حاول ابنُ كوز فتَطَلَّبَ النكاحَ فينا ليتشرَّف ويسودَ ، أو تطلَّبَ النكاحَ فى ساداتنا ، من أجلِ أنْ شتوْنا ، أى أجْدَبنا وألمَّ بنا القحطُ ، وكان هذا منه سفهاً ، والسَّفَهُ قبيحٌ كاسمه ، ثم قال فى البيت الثانى : وليسَ يشتدُّ على رُجوعُك خائبًا غيرَ ظافرٍ بطَلِبَتِك مزْرِياً عليك بِرَدِّنا إيَّاكَ ، وزارِياً - علينا لتقديرِكَ أنَّا أسأنا إلى أنفُسنا بانصرافك عنا : ثم قال فى البيت الثالث : نحنُ نُقاسى

(١) وقال فى اللسان — مادة سود — أن معنى ليستاد منا : أن يتزوج منا سيدة .

الدواهي من شدة الحال وكلب الزمان هربا من الخازي ، ثم قال : فلا تطلبنها يا بن كوز . . . البيت يقول : لا تحاول يا ابن كوز أن تزوجك إياها ، فإن تزوجك إياها وأد لها ، والناس منذ ظهر النبي صلوات الله عليه ، ونهينا عن وأد البنات على يديه ، قد أبقوا على البنات وامتنعوا من وادهن ، فكيف نئد بنتنا بتزويجك إياها ! ثم قال في البيت الأخير : إن أصابتنا السنة — أي الجدب فنحن على ما كنا عليه من الاباء وعزة النفس وشرف الهمة ، وإنما خص الأنوف والأعناق بالذكر لأنه يقال : في أنف فلان خزونة ، وأنفه أنف الليث ، إذا أرادوا الكبر والعزة والأنفة ، ولذلك قولهم : في عنقه صور . . . »

* * *

ولأن سيدنا رسول الله كان شديد الإشفاق على النساء ، كثير الوصاة بهن ، لما كنا يعانينه في الجاهلية من تحيف حقوقهن .

قال صلوات الله عليه : حبب إلي من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة [1] قال ابن الحاج في المدخل : إنما قال : حبب بالفعل مجهولا ولم يقل أحببت للإشعار بأن ذلك الحب إنما أريد عليه وأجبر للتشريع ، أما الصلاة فلما كان مفطوراً على محبتها قال : وجعلت قرة عيني في الصلاة ، وكذلك إنما قال : من دنياكم ، فأضافها إليهم دونه فلم يقل دنياي ولا من الدنيا ،

(١) يورده كثير من الناس والمحدثين هكذا : حبب إلي من دنياكم ثلاث الخ بزيادة (ثلاث) وهذه ثلاث فضلا عن أنها تفسد المعنى فان سيدنا رسول الله لم يقلها قال ابن قيم الجوزية : من رواه ، حبب إلي من دنياكم ثلاث فقدوهم ولم يقل عليه السلام (ثلاث) والصلاة ليست من أمور الدنيا حتى تضاف إليها وكذلك أنكر كلمة ثلاث الحافظ ابن حجر والزركشي وغيرهما من رجال الحديث : وانظر المواهب اللدنية وشرحها للزرقاني ج ٥ ص ٥١ وما بعدها .

ليدل بذلك على أن حبه إنما هو مقصور على ما يُزْلِفُه إلى الله سبحانه ، من الصلاة التى جعلت قرة عينه وابتهاجه بها لا غير ، إذ أنه صلوات الله عليه بَشَرِىّ الظاهر مَلَكُوتىّ الباطن ، وإذا هو باشر ما يصح أن يباشره الناس فإنما ذلك كان منه تأنيساً لأمّته وتشريعاً لها ، ولذا قدم النساء على الطيب . . . وهذا كلام صحيح وحق إذا نظر إليه نظرة مجردة من الهوى بعيدة عن نزغات الشيطان ، فسيدنا رسول الله يقول : إنما قرة عينى وابتهاجى فقط فيما يقربنى إلى الله عز وجل من الصلاة وما لَفَّ لِفَّها ، أما دنياكم فإنما أرادنى الله وإقامة شرائعه على حب النساء والطيب منها ، أى حبُّ هذا الجنس الضعيف ، وكذلك حبُّ التعطر ، ليكون لكم بى فى ذلك أُسْوَة ، فتستوصُوا بالنساء خيراً ، وتتجمّلُوا بكلّ ما هو جميل ، بما يجمِّل باطِنَكم وَما يجمِّلُ ظاهركم . . .

ولنمض فى شرح كلمة الرسول ﷺ عن النساء فى خطبة الوَدَاع ، فأما قوله : وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، يقول : إن الله ائتمنكم عليهن فيجبُ حفظ الأمانة وصيانتها بمراعاة حقوقها والقيام بمصالحها الدينية والدنيوية ؛ وقوله : واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فكلمة الله هى كلمة النكاح التى تستَحلُّ بها الفروج . أى الصيَغ التى ينعقد بها النكاح من إيجاب وقبول ، وأما قوله — لكم عليهن أن لا يوطِئْنَ فرشكم أحداً تكرهونه فالمعنى : أنه ليسَ للزوجة أن تمكّن أحداً ما ولو امرأة أو محرَماً من دخول بيت زوجها إلا إذا علمت عدم كراهية زوجها لذلك ، وعبّر بالفرش لأن الداخل يطأ فراش المنزل الذى يدخله ، قال الإمام الخطابى : معنى الحديث : أنه لا يؤذنُ لأحد من الرجال أن يدخل فيتحدث إليهنّ ، وكان الحديث من الرجال إلى النساء من عادات العرب

لا يعدُّونه عيباً ولا ريبة ؛ فلما نزلت آية الحجاب وصار النساء مقصورات نهى عَن محادثتهنَّ والقعودِ إليهن : وقوله ﷺ فإن فعلْن فاهجروهن فى المضاجع يريد : لا تحولوهن إلى بيت آخر ، ولا تتحولوا أنتم عنهن وَلـكن اهجروهن فى مضاجعهنَّ قيل : هو أن ينامَ معها فى المضجع وَلـكن يولِّيها ظهرَه وَلا يكلمها وَلا يجامعها ، وقيل : هو أن يترك مضجعَها وَينامَ فى مضجع غيره ولـكن فى بيتها والمِرَّحُ : الشاق ، وهو معنى قوله ﷺ فى حـــديث آخر : لا يجلِدُ أحدكم امرأتَه جلدَ البعير ثم يجامعُها فى آخر اليوم ، وقوله : بالمعروف أى حسبَ طاقتكم . .

« وسيمر عليك صدر من عبقرياتهم فى الحجاب » .

* * *

وَجاء فى الحديث الشريف ، « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً ؛ وخياركم خياركم لنسائهم » .

« وقوله صلى الله عليه وسلم : خياركم خياركم لنسائهم : أى من يعاملهن بالصبر على أخلاقهن ، و بطلاقة الوجه والاحسان إليهن وكف الأذى عنهن ، و بذل النَّدَى إليهن ، وحفظهن من المزالق ومواطن الريب ، ومن ثَمَّ كان المصطفى صلوات الله عليه أحسن الناس معاشرة لنسائه » .

* * *

وَقال سيدنا رسول الله (إنما المرأة خلقت من ضِلَعٍ عوجاء ؛ فإن تحرص على إقامتها تـكسرها ، فَدَارِها تَعِشْ بها .

« الضِلْعُ والضلعُ لغتان ، وشاهد الضِّلع قول حاجب بن ذبيان :

هِيَ الضِّلعُ العوجاء لستَ تُقيمُها ألَا إنَّ تقويمَ الضلوع انكسارُها

وَشاهد الضّلع قول ابن مُفَرِّغ :

وَرَمَقْتُها فوجدتُهـــا كالضِّلْع ليس لها استقامة

وَالضِلعُ : تَحْنِيَة الجنب — عظم مستطيل من عظام الجنب مُنْحَنٍ — وَهى مؤنثة ، وَالحديث تمثيل ، وَالمراد الإرشاد إلى سياسة النساء ؛ بأخذ العَفْوِ منهن وَالصبر على عِوَجِهِنَّ وَإن من رام تقويمهن فاته الانتفاع بهن ، مع أنه لا غنى عن امرأة يَسْكُنُ إليها وَيستعين بهـــا على معاشه ، فكأنه قال : الاستمتاع بالمرأة لا يتم إلا بالصبر عليها ، وَفى بعض روَايات هذا الحديث : إن المرأة خلقت من ضلع ، لن تستقيم لك على طريقة ، فان استمتعت بها استمتعت وَفيها عوج ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها ، نبه بذلك عليـه الصلاة وَالسلام إلى أنه ينبغى مُداراتُهُنَّ وَأن لا يُنَغَّصَ عليهنَّ فى أخلاقهنَّ وَانحراف طبائعهنَّ فإن ذلك يؤدّى الى مُفَارقتهنَّ .

وقَالَ الإمامُ الغَزَالِى — وَذَكَرَ حقوقَ المرأة على الرجل وحقوقَهُ عليهَا — أمَّا المرأة فلها على زوجها أن يعاشرَها بالمعروف ، وأن يُحَسِّنَ خُلُقَهُ مَعَهَا ، قال وليس حُسْنُ الخلق مَعَهَا كَفَّ الأذَى عنها ، بل احتمالَ الأذَى مِنْهَا ، والحلمَ على طَيْشِها وَغَضَبِها ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان أزواجُهُ يُرَاجِعْنَه فى الكلام ، وتَهْجُرُهُ إحدَاهُنَّ إلى الليل — وراجعت امرأةُ عُمَر عُمَر رضى الله عنه الكلامَ ، فعلاها بالدِّرَّةِ : أتراجعينى يا لَكَاعِ ! فقالت . إن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يراجِعْنَهُ وهو خيرٌ مِنْك ، فقال رضى الله تعالى عنه : خابت حَفصةُ وَخَسِرَت إن راجعته صلى الله عليه وسلمَ ، ثم قال لحفصة : لا تَغْتَرِّىّ بابنة ابن أبى قحافة فإنها حِبُّ رسول الله صلى الله عليه

وسلم [1] ودفعت إحداهن فى صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزجرتها أمها ، فقال : « دعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك » وجرى بينه عليه السلام وبين عائشة كلام حتى أدخل أبو بكر حكما بينه عليه السلام وبينها فقال لها رسول الله صلى عليه وسلم « تكلمى أو أتكلم » فقالت : تكلم أنت ولا تقل إلا حقا . . فلطمها أبو بكر حتى أدمى فاها وقال : أو يقول غير الحق يا عدية نفسها ، فاستجارت برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقعدت خلف ظهره ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « إنا لم ندعك لهذا ، أو لم نرد منك هذا » .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول لها : إنى لأعرف إذا كنت عنى راضية ، وإذا كنت على غضبى ، قالت : وكيف تعرف ذلك ؟ قال : إذا رضيت قلت لا وإله محمد ، وإذا غضبت قلت : لا وإله إبراهيم : قالت : أجل يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك — قال ويقال إن أول حب وقع فى الاسلام حب النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها (قال) الغزالى : وأعلى من ذلك أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزاح والملاعبة : فهى التى تطيب قلوب النساء . وقد كان رسول الله يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن فى الأعمال والأخلاق حتى يروى أنه كان يسابق عائشة فى العدو فسبقته يوما وسبقها فى بعض الأيام وقال : هذه بتلك وفي الخبر : أنه صلى الله عليه وسلم ، كان من أفكه الناس مع نسائه ، وقالت عائشة رضى الله عنها : سمعت أصوات أناس من الحبشة ومن غيرهم وهم يلعبون فى يوم عاشوراء ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه

---

(١) يريد بابنة أبى قحافة : السيدة عائشة ، وحب رسول الله : أى محبوبته .

وسلم « أتحبين أن ترى لعبهم » قالت : قلت : نعم يا رسول الله فأرسل إليهم فجاءوا وقامَ رسولُ الله بين البابين ووضع كفَّهُ على الباب ومدَّ يدَهُ ووضعتُ ذقني على ذراعه ، وجعلوا يلعبون وأنا أنظر وجعل رسول الله . يقول : حسبك ، وأقول اسكتْ مرتين أو ثلاثاً ثم قال : يا عائشةُ حَسْبُكِ الآن فقلت : نعم ، فأشارَ إليهم : فانصرفوا . وقال عُمَرُ (رضى الله عنه) مع خشونته ينبغى للرجل فى أهله أن يكون مثلَ الصبيّ . فاذا التمسَ ما عندَه وُجِدَ رَجلاً وفى الخبر المروى (أن الله يبغض الجعْظَرِى الجواظ)[1] .

(قال) الغزالى : وينبغى مع هذا أن لا يَنبَسِط فى المداعَبة ولين الخلق والموافقة باتّباع هواها إلى حد يُسقط هَيبَته ، ويُفسِدُ خُلقها بل يُراعى الاعتدالَ فى ذلك كله فلا يَدَعُ الهيبَةَ وَالانقباضَ مهما رأى ما يكره ، وَلا يفتح باب المساعدة على ذلك البَتَّة ، بل كلما رأى شيئا من ذلك تَنَمَّرَ وامتَعَض (قال) الحسن : ما أطاع رجل امرأته فيما تهوى إلا كَبَّهُ الله فى النار ، وقال صلى الله عليه وسلم : تعِسَ عبْدُ الزوجة ، وَإنما قال ذلك لأنه إذا أطاعها فى هواها فهو عبدُها ، وَقد تعِسَ : فإن الله سبحانه قد ملَّكَهُ المرأةَ فملَّكها هو نفسه فقد عكسَ الأمر وَقلبَ القضيـــة ، وأطاع الشيطانَ كما قال « ولآمرنَّهم فليُغيِّرُنَّ خَلْقَ الله » إذ حقُّ الرجل أن يكونَ متبوعاً لا تابعاً وَقد سمَّى الله تعالى (الرِّجالُ قَوامُونَ عَلَى النِّسَاء) وسمَّى الزوجَ سيداً فقال (وَألفيا سيِّدَها لدَى البَاب) فإذا انقلب السيد مسخَّراً : فقد بدَّلَ نِعمة الله كفراً ، ونفسُ المرأة على مِثال نفسك ، إن أرسلت عِنانَها قليلا جمَحَتْ بِكَ

---

(١) الجعظرى : الفظ الغليظ المتكبر والجواظ : البطر الكفور .

طويلا ، وإن أرخيتَ زمامَها فترًا جذبتْكَ ذِراعا ، وإن كبحتَها وشددتَ يدكَ عليها فى محلِّ الشدةِ ملكتَها . وقال الشافعى رضى الله عنه : ثلاثةٌ إنْ إنْ أكرمتَهم أهانوكَ . وإنْ أهنتَهم أكرموكَ فذكر منهم المرأة : أراد إن محضْت لهم الإكرام ولم تمزجْ غلظك بلينك وفظاظتك برفقك .

وكان نساءُ العرب يُعلِّمْنَ بناتهنَّ اختبارَ الأزواج ؛ فكانت المرأة تقول لابنتها : اختبرى زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه فانزعى زج رُمْحه ، فإن سكت فقطِّعى اللحم على تُرْسِهِ ، فإن سكت فكسِّرى العظام بسَيْفِهِ ، فإن صبرَ فاجْعَلِى الإكافَ على ظهره وامتطيه ، فإنما هو حمارُكِ ، وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والأرض ؛ وكل ما جاوَزَ حدَّهُ انقلبَ إلى ضدِّه ، فينبغي أن تسلكَ سبيلَ الاقتصادِ فى المخالفةِ والموافقةِ وتتبع الحق فى جميع ذلك لتسلمَ مَن شرِّهِنَّ .

ومما يجمُل إيرادها هنا ما رُوى : أنَّ امرأةً أتت إلى عُمَر بن الخطاب فقالت يا أمير المؤمنين ! إن زوجى يصوم النهار ويقوم الليل ، وأنا أكرهُ أن أشكُوَه إليكَ وهو يقوم بطاعة الله عز وجل ! فقال لها : جزاكِ الله خيراً من مُثْنِيَةٍ على زوجها ، وكأنَّ عُمَرَ لم يَفْهَم عنها ، وكان فى المجلس كَعْبُ ابن سُوْرٍ الأزْدى ، فأخبر عُمَرَ أنها تشكو أنَّهُ ليس لها من زوجها نصيب ، فأمَرَهُ عُمَرُ أن يسمع منها ويقضى بينهما فقضى للمرأة بيومٍ من أربعة أيام وليلةٍ من أربع ليال ، فسأله عُمَرُ عن ذلك فقال : إن الله عزّ وجلّ أحلّ له أربع نسوة لا زيادة فلها ليلة من أربع ليال .

وقد رَوَى الشَعبىُّ هذا الخبرَ على وجه آخر قال : إن كعب بن سُوْرٍ كان

جالساً عند عُمَرَ فجاءته امرأة فقالت : ما رأيت رجلا قطُّ أفضلَ من زوجي، انه ليبيت ليله قائماً ويظلُّ نهارَه صائماً في اليوم الحارّ ما يُفطِر ، فاستغفر لها عمر وأثنى عليها ، وقال مِثْلُكِ أثنَى بالخير ، فاستحيَت المرأة وقامت راجعة ، فقال كعب بن سوْر : يا أمير المؤمنين ، هل أعْدَيْتَ المرأةَ على زوجها إذ جاءتك تستعديك[1] ؟ فقال عمر : أكذلك أرادت ؟ قال : نعم ، قال : رُدُّوا عليّ المرأة ، فرُدت فقال لها : لا بأس بالحق أن تقوليه ، إن هذا يزعم أنك جئت تشتكين زوجك انه يجتنب فراشك ، قالت : أجَلْ إني امرأة شابةٌ وإنّي أبتغي ما يبتغي النساء ، فأرسل الى زوجها ، فجاء ، فقال لكعب : إقْضِ بينهما ، فقال : أمير المؤمنين أحَقُّ بأن يَقضيَ بينهما ، فقال : عَزَمْتُ عليك لتقضين بينهما فإنك فَهِمْتَ من أمرهما ما لم أفهَم ، قال : فإني أرى أنّ لها يوماً من أربعة أيام إن كان أرْبَعُ نِسْوة فإذا لم يكنْ له غيرها فإنّي أقضِيَ له بثلاثة أيام ولياليهنّ يتعبّدُ فيهن ، ولها يومٌ وليلة ، فقال عمر : إذهب فأنتَ قاضٍ على البصرة . . .

ومما يصيحُّ إيرادُه في هذا الموضع ذَرْوٌ من حَثِّهم على البرّ بالأمّهات قال سيدنا رسول الله (الجَنّةُ تحتَ أقْدامِ الأمّهات) ، والمرادُ : أنْ يكونَ الإنسانُ في برِّ أمّه وخِدْمَتِها كالتراب تحت قدميها ، مُؤْثِرًا لهواها على هواه ، مُقَدِّما برَّها على سِواها ، لتحمُّلها شدائدَ حَمْلِه ورَضاعِه وتربيته .

وقيل لعليّ بن الحُسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم : إنكَ مِنْ

---

(١) يقال : استعديت الأمير على فلان فأعداني ، أي استعنت به عليه فأعانني والاسم منه العَدْوَى وهي طلب المعونة .

أبرّ الناس بأمّك ، ولسنا نراك تأكل مع أمّك فى صحفة ! فقال : أخافُ أنْ تَسْبِقَ يَدِى إلى ما قد سبقت عَيْنُها إليه فأكونَ قد عَقَقْتُها ، ومن طرفهم ماروَاه المبرد : أنه سُمِعَ رَجُلٌ وهو يَطُوف بالبيت وهو يَدْعُو لأُمّه ولا يذكرُ أباهُ ، فعُوتِبَ ، فقال : هذه ضعيفةٌ وأبى رجلٌ يحتالُ لنفسه . . قال : ورأيتُ رجلاً يطوفُ بالبيت وأُمُّه على عُنُقِه وهو يقول :

أَحْمِلُ أُمِّى وهِىَ الحَمَّالَهْ تُرْضِعُنِى الدِّرَّةَ والعُلالَهْ
ولا يُجازَى والدٌ فَعَالَهْ[1]

وقد أوردْنا كثيراً من عبقرياتهم فى برّ الوالدَين فى المجلّد الأول مِنْ هذا الكتاب . واستيفاءً لهذا الباب — باب الحث على الوَصاة بالنساء نوردُ صَدْراً مِنْ حَثِّهِمْ على محبّة البنات . . .

يُرْوَى أنَّ مَعْنَ بنَ أَوْسٍ المُزَنى — شاعرٌ إسلامى من الفحول — كانَ مِئْنَاثاً ، وكان له ثمانِ بنات ، وكان يحسن صحبتهن وتربيتهن ، فوُلد لبعض عشيرته بنت ، فكرهها وأظهر جزعاً من ذلك : فقال مَعْنٌ :

رَأَيْتُ رِجالا يَكْرَهُونَ بناتِهم وفيهنَّ لا تُكْذَبْ نِساءٌ صَوالِحُ
وفيهنَّ ، والأيامُ يَعْثُرْنَ بالفتى عـــوائدُ لا يَعْلَمْنَهُ ونوائحُ

ودخَلَ عَمْرو بنُ العاص على مُعاوية وعنده ابنتُه عائشَة ، فقال : مَن هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال هذه تُفَّاحَةُ القَلْب ، فقال : أَنْبِذْها عنك ، قال : ولم ؟ قال : لأنهنَّ يلدْنَ الأعداء ، ويُقَرِّبْنَ البُعَداء ، ويُؤَرِّثْنَ الضَّغائن ، فقال :

(١) الدِّرّة : اسمُ ما يَدِر من ثَدْيها ابتداء كان أو غير ذلك ، والعلالة لا تكون إلا بعد حَلْبِ الدِّرة ، وفَعَاله : أى فعله الحسن .

لا تقلْ ذلك يا عَمْرو ، فوالله ما مرَّضَ المرْضَى ولا ندَبَ الموتى ولا أعانَ على الأحزان : مثلُهنَّ ، وإنَّك لواجِد خالا قد نَفَعه بنو أخْتِه ؛ فقال له عمرو : ما أعلَمُكَ إلا حَبَّبْتَهنَّ إليَّ ...

وقال أبو خالد القِنَانى — وكانَ مِنَ الخوارِج — : وكان قَطَرِيّ بن الفُجاءة دَعاهُ إلى الخروج للقتال فقال :

لقد زادَ الحياةَ إلىَّ حُبًّا ... بناتى أنَّهنَّ مِنَ الضِّعافِ
أُحاذِرُ أن يَرَيْنَ البؤسَ بعدى ... وأنْ يَشْرَبْنَ رنقًا بعد صافِ (١)
وأن يَعْرَيْنَ إنْ كُسِيَ الجوارى ... فتنبو العينُ عن كرمٍ عِجافِ (٢)
ولولا ذاكَ قد سَوَّمْتُ مُهْرِى ... وفى الرحمن للضُّعَفاءِ كافِ (٣)
أَبانا ، مَن لنا إنْ غِبْتَ عَنَّا ... وصارَ الحىُّ بعدكَ فى اختِلافِ

« راجع المجلد الأول مِنْ هذا الكتاب » .

وقال حِطَّان بنُ المُعلَّى — شاعرٌ إسلامىّ — :

أنْزَلَنِى الدهرُ على حُكْمِهِ ... مِن شامخٍ عالٍ إلى خَفْضِ
وَغالَنِى الدهرُ بوفْرِ الغِنى ... فليس لى مالٌ سِوى عِرْضِ

---

(١) الرنق : الماء الكدر .

(٢) كرم عِجاف : قال ابن سيده رجلٌ كَرَمٌ : أى كريم وكذلك الاثنان والجمع والمؤنث تقول امرأة كَرَمٌ ونسوةٌ كَرَمٌ لأنه وصف بالمصدر ، وعجاف : جمع عَجْفاء على غير قياس والعجف : الهزال .

(٣) يقول : لولا إشفاقى على بناتى لخضت غمار الحرب والله حسبهن وكاف لهن ، والخيل المسوّمة المرسلة وعليها ركبانها .

أبكانيَ الدهرُ وَيا رُبَّما ... أضحكني الدهر بما يُرْضِ

لولا بُنَيَّاتٌ كزُغبِ القَطَا ... رُدِدْنَ مِنْ بَعْضٍ إلى بعضِ

لكان لى مضطربٌ واسعٌ ... فى الأرض ذاتِ الطولِ والعَرضِ

وإنما أولادُنا بيننا ... أكبادُنا تمشى على الأرضِ

لو هَبَّتِ الريحُ على بعضِهم ... لامتنعَتْ عينى من الغُمْضِ

« أنزلنى الدهر على حكمه : أنزله مِنَ العِزّة إلى الذلّة يحكم فيها بما يشاء ؛ ومن شامخ : من جَبَلٍ شاهق طويل فى السماء ؛ وإلى خفض : إلى مطمئن مِنَ الأرض ، وهذا تمثيل ، وغالنى الدهر : أخذَهُ غيلةً من حيث لم يَدْرِ ، وبوفر الغِنى ، يريد فى كثرة ماله وليسَ لى مالٌ سوى عِرْضِى : أى لم يُبْقِ له الدهر شيئا إلاّ أتى عليه ، سِوَى عِرْضِه فلم ينتقصْهُ ، والعرض : موضعُ المدْح والذَّمّ من الانسان سَواء كان فى نفسِهِ أو سَلَفِهِ أو من يلزمُهُ أمْرُه ، وقيلَ : هو جانبه الذى يصونُهُ من نفسِهِ وحسَبِهِ ويحامى عنه أن يُنْتَقصَ ويُثْلَبُ ؛ وبما يرضى : أضْحكنى أحيانًا بما يُرْضينى ؛ وكزُغبِ القَطَا : واحِدُها زَغَباه والذكر أزغب والمصدر الزغب وهو أول ما يبدو من رش الفرخ وكذا من شعَر الصبى : وردد من بعض إلى بعض تصوير لهيئة تداخل الأفراخ وانضمام بعضهن إلى بعض أوّل نشأتِهنّ ، يصف بناته بأنهن ضِعاف لا يَستطعنَ القيام بشؤنهنّ ، ومضطرَب : اضطراب وتحرك ، و : أكبادُنا : تمثيلٌ لمعنى الشفقة عليهن ، وقد بينها بقوله لو هبت الريح . . . البيتَ » .

حديث أبى زَرْع وأمّ زرْع :

ونُختتِمُ هذا الباب — بابَ الإحسان فى مُعاشَرة الأهْل وحضِّهم الرجالَ على الرفق بالنساء ومُفاكهتهن بحديث طريف أوْرَدَهُ البخارى فى صحيحه وأوردَهُ غيره مِنْ رجالِ الحديث ، وذلك أنَّ سيدنا رسولَ الله قال

يوماً لعائشة رضى الله عنها يداعبها ويفاكهها ويقص عليها من طرف الماضين ما تنبسط به نفسها وما فيه لمن بقى اعتبار ، وكل ذلك بعبارة مسجوعة سجعاً له هو الآخر طلاوته ، أما الفاظه الغريبة فهى أيضاً مما يستطرف ويستساغ فى مثل هذا المقام ، قال صلوات الله وتسليماته عليه لعائشة وقد سمعها تفخر بمال أبيها فى الجاهلية ، وكان ألف ألف أوقية ، فقال رسول الله : اسكتى يا عائشة فإنى (كنت لك كأبى زرع لأم زرع ، قالت عائشة : بأبى وأمى يا رسول الله ، ومن كان أبو زرع ؟ قال صلى الله عليه وسلم « جلس إحدى عشرة امرأة ، فتعاهدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً ، قالت الأولى : زوجى لحم جمل غث ، على رأس جبل وعث ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقى ، قالت الثانية : زوجى لا أبث خبره ، إنى أخاف أن لا أذره إن أذكره أذكر عجره وبجره ، قالت الثالثة : زوجى العشنق ، إن أنطق أطلق ، وإن أسكت أعلق ، قالت الرابعة : زوجى كليل تهامة لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة ، قالت الخامسة : زوجى إن دخل فهد ، وإن خرج أسد ، ولا يسأل عما عهد ، قالت السادسة : زوجى إن أكل لف ، وإن شرب اشتف ، وإن اضطجع التف ، ولا يولج الكف ليعلم البث ، قالت السابعة : زوجى غياياء طباقاء ، كل داء له دواء ، ان حدثته سبك ، وإن مازحته شجك ، أو جمع كلك ، قالت الثامنة : زوجى ألمس مس أرنب والريح ريح زرنب ، قالت التاسعة : زوجى رفيع العماد ، طويل النجاد ، عظيم الرماد ، قريب البيت من الناد ، قالت العاشرة : زوجى مالك ، وما مالك ؟ مالك خير من ذلك ، له إبل كثيرات المبارك ، قليلات المسارح ، وإذا

سَمِعْنَ صوتَ المزهرِ أيقنَّ أنهنَّ هَوالِكُ ، قالت الحادية عشرة : زوجي أبو زَرْع ، وما أبو زَرْع ؟ أناسَ مِن حُلِيٍّ أذُنَيَّ ، وملأ من شحمٍ عضُدَيَّ ، وبجَّحَنِي فبَجِحَتْ نفسي إليَّ ، وجدَنِي في أهلِ غُنَيْمَةٍ بشِقٍّ فجعلني في أهل صَهِيلٍ وأطِيطٍ ، ودائسٍ ومُنَقٍّ ، وعندَهُ أقولُ فلا أُقبَّحُ ، وأرقُدُ فأتصبَّحُ ، وأشربُ فأتقنَّحُ ؛ أمُّ أبي زَرْع ، فما أمُّ أبي زرع ؟ عكومُها رَداحٌ ، وبيتُها فَسَاحٌ ، ابنُ أبي زَرْع ، فما ابنُ أبي زَرع ؟ مَضجَعُه كمَسَلِّ الشَّطْبَة ، وتُشبِعُه ذراعُ الجَفْرَة ، بنت أبي زرع ، فما بنتُ أبي زَرْع ؟ طَوعُ أبيها ، وطوعُ أُمِّها ، ومِلءُ كِسائِها ، وغيظُ جارتها جاريةُ أبي زَرع ، فما جاريةُ أبي زَرع ؟ لا تَبُثُّ حديثَنا تَبْثِيثًا ، ولا تُنقِّثُ مِيرَتَنا تنقيثًا ، ولا تملأ بيتَنا تَعْشِيشًا ، قالت : ثمَّ خرجَ أبو زَرْع والأوطابُ تُمخَض ، فلقِيَ امرأةً معها ولَدان لها كالفَهْدَيْنِ يلعبان مِن تحتِ خَصْرِها برُمَّانتَيْن فطلَّقَنِي ونكَحَها ، فنكحتُ بعدَهُ رجُلاً سَرِيًّا ، رَكِبَ شَرِيًّا ، وأخذَ خَطِيًّا ، وأراحَ عليَّ نَعَمًا ثريا ، وأعطاني مِن كُلِّ رائحةٍ زَوْجًا ، وقال : كُلِي أُمَّ زَرْع ، وَمِيرِي أهلَكِ ، قالت : فلو جمعتُ كُلَّ شيءٍ أعطانيه ما بلَغَ أصغرَ آنية أبي زرع . . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكنتُ لكِ يا عائشةَ كأبي زَرع لأُمِّ زَرْع في الأُلْفَة والوَفاء ، لا في الفرقة والجَلاء ، إلا أنَّهُ طلَّقها وأنَّى لا أطلِّقُكِ ، قالت عائشة : بأبي وأُمِّي لأنتَ خيرٌ لي من أبي زَرْع لأُمِّ زرع ... » .

« الشَّرْح ، قال علماؤنا : إنَّ سببَ هذا الحديث أنَّ عائشة كما قلنا فخرتْ بمالِ أبيها في الجاهليَّة . فقال رسول الله : أُسكُتِي يا عائشةُ فإني كنتُ لكِ

كأبي زرع لأم زرع ؛ وقيل : إن السبب أن سيدنا رسول الله دخل على عائشة وابنته فاطمة وقد جرى بينهما كلام فقال : ما أنت بمنتهية يا حميراء [1] عن ابنتي ، « إن مثلي ومثلك كأبي زرع مع أم زرع ، فقالت : يا رسول الله : بأبي وأمي حدثنا عنهما الخ . هذا وينطوي في هذا الحديث معان ، منها إحسان المرء في عشرة زوجه بالتأنيس والمزاح وبسط النفس ومداعبة الرجل زوجه وإعلامها بمحبته لها ، ومنها حض النساء على الوفاء لبعولتهن والشكر لجميلهم ومنها الحث على الإشادة بمحاسن الزوج ما دام ذا خلق حسن ومنها أن من شيمة المرأة التحدث إلى النساء عن أخلاق زوجها إن خيرا فخير وإن شرا فشر إلى آخر ما هنالك ، والآن فلنشرح الحديث ، أما قول الأولى : زوجي لحم جمل غث على رأس جبل وعث ...

فالغث : الهزيل ، والوعث : الصعب المرتقى بحيث يشق فيه المشي ، ومنه وعثاء السفر ، ويُنتقى : أي يطلب نقيه ، والنقي : المخ ، تقول : إن زوجها كلحم جمل هزيل مرتقى جبل وعر ، فلا الجبل سهل فلا يشق ارتقاؤه لأخذ اللحم ولو كان هزيلا ولا اللحم سمين فيتحمل المشقة في صعود الجبل لتحصيله شبهت زوجها بلحم الجمل الهزيل في قلة خيره ومنفعته ، وشبهت وعورة خلقه وشراسته بالجبل الوعث ، وبعد خيره ببعد اللحم على رأس الجبل ، والزهد فيما يرجى منه مع قلته بالزهد في لحم الجمل الهزيل ، فأعطت التشبيه حقه ووفته قسطه ، وقول الثانية : إن أذكره أذكر عجره وبجره يريد

---

(١) كان سيدنا رسول الله يقول لعائشة أحيانا : يا حميراء ، تصغير الحمراء يريد : البيضاء ، وكان ذلك منه لونا من مفاكهته لها ، وفي الحديث : خذوا شطر دينكم من الحميراء .

أذكر معايبهُ الكثيرة وتأخُّره عَنِ المكارم ، وهذان الحرفانِ — عجَرَه وبُجَرَه — قد يُستعملانِ فيما يكتُمهُ المرءُ ويُخفيه ، وقد يُستعملانِ فى الهُموم والأحزان ، وقد يُقال : أفضيتُ إليه بعُجَرى وَبُجَرى ، أى بأمْرى كُلِّه ، تقول هذه المرأة : إنى أخافُ ألاَّ أترُكَ مِنْ خبر زوجى شيئا ، أى أنَّه لطوله وكثرته أخافُ إنْ بدأتُه لم أقدِرْ على تكميله ، وهذا هو معنى قولها : إنى أخاف ألاَّ أذكره ، ثم قالت : إن ذكرتُ خبر زوجى أذكرُ كل شىء فيه من مَساويه ، وهذا مِمَّا أخشاهُ ، فقد يبلغه فيفارقها ، وقد التزمتْ الصِّدْق ، فسكتت عن التفسير لذلك ، فهذه الثانية أيضا ممَّن يَذْممْنَ أزواجهنَّ لمساويهن ، ولكنها تذمُّه بالكناية ، وقول الثالثة : زوجى العَشَنَّق ، فالعَشَنَّق : القبيحُ الطِّوال ، وقال الخليل : هو الطويل العُنُق ، تقول : إنَّ لَهُ مَنْظَرًا بلا مَخْبَر ، لأن الطول فى الغالب دليل السَّفَه ، وقولها : إنْ أَنطِقْ أُطَلَّقْ الخ تقول إن ذكرتْ عُيوبَه فيبلغُه ذلك طلَّقها ، وإن سكتتْ عنها فهى عنده مُعَلَّقة ، لا ذاتَ زوج ولا أيِّم ، أو تقول : إنَّها أرادتْ سُوء حالها عنده ، فأشارتْ إلى سُوء خُلُقه وعدم احتماله لكلامِها إن شكتْ له حالها وأنَّها تعلَم أنها متى ذكرتْ لَهُ شيئا من ذلكَ بادرَ إلى طلاقها ، وإن سكتتْ صابرةً كانت عنده كالمعلَّقة التى هىَ لا ذات زَوْج ولا أيِّم ، وفى رواية بعد قولها ، وإن أسكتْ أُعلَّق : على حَدِّ السنان المُذَلَّق ، والمذَلَّق : المجرَّد . أى أنها إن حادت عن السنان سقطتْ فهلكت ، وإن استمرت عليه أهلكها ... وهذه المرأة كذلك ممن لا يحمدْنَ أزواجهن كما ترى . أما الرابعة التى تقول : زوجى كليْلِ تِهامَة الخ فإنها تريد مَدْحَ زَوجها إذ تصفُه بجميل العشرة ، واعتدال الحال ،

وسلامة الباطن : فلا أذى عنده ولا مَكْرُوه وأنا لا أخافُ من شرّه ولا مَلَلَ عنده فيسأم من عِشْرَتى ، أو ليس بسَيِّء الخُلُق فاسْأَمَ مِنْ عِشْرته ، فأنا لذيذة العَيْش عنده كلذّة أهلِ تِهامَة بليلهم المعتدل . أمّا الخامِسَة فهى كذلك تمدحُ زوجَها ، تقول : إن زوجَها إذا دخل البيت فَهِد ، أى صار كالفَهْد[1] فى تغاضيه ، قال بعض العلماء : شَبَّهَتْهُ فى لينهِ وَغَفْلَتِه بالفَهْد ، لأنه يُوصَفُ بالحياء وقلّة الشَّرِّ وَكثرة النَّوم ، ثم قالت : وَإن خرجَ أسِدَ ، أى يصيرُ بين الناس مثلَ الأسد ، ثم قالت : ولا يسأل عما عَهِد ، أى أنه كريم كثير التغاض لا يتفقّدما ذَهَبَ مِنْ ماله ، وَإذا جاء بشىء لبيته لا يَسْأل عنه بعدذلك . أمّا السادسة فهى تشكو زوجَها وتذمّه ، تقول : إن أكلَ لَفَّ ، أى أنه يُكثر مِنَ الطعام ويستقصى حتى لا يترك منه شيئاً ، وإن شرِبَ اشتفَّ أى أنه لا يُبقى فى الإناء شيئاً من الماء ، من الشُّفافَة وهى البقيّة تبقى فى الإناء ، والعربُ تَذُمّ بكثرة الأكلِ والشُّرب ، ثم قالت : وإنِ اضْطجَعَ التَفَّ ، أى إن نامَ رقد ناحِية وتلفّف بكسائه وحده وانقبض عن أهله — زوجه — إعراضا ، فهى كئيبة حزينة لذلك ، ولهذا قالت : ولا يولج الكفّ ليعلمَ البث أى لا يَمُدُّ يدَه ليعلمَ ما هى عليه مِنَ الأسف والحزن فيزيله ، وقد تريد أنه ينامُ نوم العاجز الفشِل الكسِل ، والمراد بالبثّ ، الحزْن ويطلق على الشكْوى وعلى المرَضِ وعلى الأمْرِ الذى لا يُصْبَرُ عليه ، فأرادت أنه لا يَسْأَلُ عَن الأمر الذى يهمُّها ، فوصفته بقلة الشفقة عليها وأنه لو رآها عليلة لم

---

(١) الفهد ضرب من السباع بين الكلب والنمر قوائمه أطول من قوائم النمر وهو منقط بنقط سود لا يتكون منها حلق كالنمر .

يُدْخل يدَه فى ثوبها ليتفقد خبرها كعادَة الأجانب فضلا عن الأزواج ، أو أنَّ ذلك كناية عن تركه ملاعبتها ، أو عن ترك الجماع ، والعرب تتمدَّحُ بكثرة الجِماع لدلالتها على صحَّة الذكورية والفحولية . وقال بعضهم : إنَّ معْنى قولها : ولا يولج الكف ليعلم البثَّ : أنه لا يُعْنَى بمصالحها ويهمل تفقُّدَ أُمورها ولا يبالى أن تجوع ، وقد جمعت هذه فى وصفها لزوجها بين اللؤم والبخل والتَّهَم والمهانَة وسوء العِشرة مع أهله . . أما السابعة فهى تقول : زوجى غياياء فغياياء إمَّا مشتق من الغياية وهى كل شىء أظلَّ الشخصَ فوقَ رأسه فكانه مُغطًّى عليه مِنْ جَهْله والمعنى أنه لا يَهْتَـــدى إلى مَسْلَك ، أو أنَّها وصفتْهُ بثقل الروح وأنه كالظل المتكاثف الظلمةِ الذي لا إشراقَ فيه ، وإمَّا هو مشتق من الغَى وهو الانهماكُ فى الشر ، أو الغى الذى هو الضلالَ والخيبَة والطباقاء هو المطبَق عليه حُمْقاً ، وقال الجاحظ : هو الثقيل الصدر عندَ الجماع ينطبق صَدْرُه على صدْر المرأة فيرتفعَ سُفْلُه عنها ، وقد ذمَّتِ امرأةٌ امرأً القيْس فقالت : إنه ثقيلُ الصَّدْر خفيفُ العَجُز سريعُ الإراقة بطىء الإفاقة . وقولها : كلُّ داء لَهُ دواء فمعناه : كلُّ شىء تفرَّق في الناسِ مِنَ المعايب موجودٌ فيه ، ويجوز أن يكون معناه : كلُّ داء فيه مُوف على الغاية أى أنه فى غاية التناهى ، وقولها : إن حدثته سبك أو مازَحْتَه شجَّك أو جمع كُلاًّ لك تقول — كما جاء فى بعض الروايات — إذا حَدَّثته سَبَّك وإذا مازحْته شَجَّك أى جرحَك فى رأسك ، أو فلَّك أى ثَلَمَك ، أى جرحَ جَسَدَك أو كَسَرك ، أو جمع كل هذا لك ، تصفُه بالحمق وسوء العِشرة ، فإذا حَدَّثتْه سبها وإذا مازحَته شجها وإذا أغضبتْه كسر عُضواً مِنْ أعضائها ، أو جمع كلَّ ذلك لَك —

الضرب والجرح وكسر العضو ومُوجع الكلام — وأمَّا الثامنة فتقول : المَسُّ من زوجي مَسُّ أرْنَب ، تَصِفُه بأنَّه ليِّن الجسَدِ نَاعِمُه ، ويجوز أن تكون كَنَّتْ بذلك عن حُسْن خُلُقِه ولين عَرِيكته ، ثم قالت : وريحه ريح زرنب — والزرنب نَبْتٌ طيب الرائحة — تَصفه بأنه طيِّبُ العَرَق لنظافته وتطيُّبُه ، أو كَنَّتْ بذلك عن طيب حديثه أو طِيب الثناء عليه لجميل مُعَاشَرته ، وفى بعض الرواية هذه الزيادة « وأنا أَغْلِبُه والناسَ يَغْلِبُ » . تقول : إنه لكرم أخلاقه يحتملها فهى تغلِبُه وأنه لشجاعته مع غَلبة امرأته عليه يغلب الناس ، وهذا كما قال معاوية : النساء يغلِبْنَ الكِرام ويغلبُهنَّ اللِّئام . . . وأمَّا التاسعة فهى تقول زَوْجي رفيعُ العِماد فالعمادُ فى الأصل : الخشبَة التى يَقومُ عليها البيت ، أرادت عمـــادَ بيت شَرفه والعرب تضع البيت موضع الشرف فى النسب والحسب ، فهي تكنى بذلك عن شرفه ورفعة قَدْره ، والنجاد : حمائل السيف وطول النجاد كناية عن طول قامته فإنها إذا طالت طال نجاده ، وفى ضمن ذلك أنه صاحب سيف : فهى تصفه بالشجاعة ، وقولها : عظيم الرماد كناية عن الكرم يعنى أن نار قِراهُ للأضياف لا تنطفىء لتهتدىَ الضيفان إليها وبذلك يصير رمادُ ناره كثيراً ، وقولها : قريب البيت مِنَ الناد ، وقفت على الناد بالسكون للسجع ، والنادى والندىّ : مجلسُ القوم ، تصفه بأن شريف فى قومه ، فهم إذا حَزَبَهُمْ أمرٌ وأرادوا أن يتفاوضوا ويَشْتوِرُوا فى أمرٍ أتَوْهُ فأَتَمَرُوا بأمره واعتمدوا على رأيه ، وجملة القول : أنهـــا وصفته بالسيادة والكرم والشجاعة وحسن الخلق وطيب المعاشرة . . . وقالت العاشرة : زوجي مالك ، وما مالك ؟ مالك خير من ذلك . . . الخ تقول : إن زوجها

فوقَ كُلِّ مالك ، أى أنه خير مما يدور فى البال مِنْ مَالكِ الأموال ، أى أنه أجمعُ لخصال السيادة والفضل والكرم من كل مَنْ ملك ، فهو له إبل كثيرات المبارك ، أى له إبلٌ كثيرة ، ومِنْ ثَمَّ كَثُرَتْ مَبَارِكُهَا — جمع مَبْرَك — موضعُ نزولِ الإبل ومعنى قولها : قليلات المسارح — جمع مَسْرَح : الموضع الذى تُطْلَق لترْعى فيه أنه لكرَمِه وكثرةِ قِراه للأضياف لا يوجِّهُ منها إلى المسارح إلا قليلا ويتركُ سائرها بفِنائه فإنْ فاجأه ضيفٌ وجدَ عنده ما يَقْريه بها من لحومها وألبانها ، أو هى تُشيرُ بذلك إلى كثرة طروق الضِّيفان فاليوم الذى يطرقه الضيف فيه لا تَسرحُ حتى يأخُذَ منها حاجته للضِّيفان واليوم الذى لا يطرقه فيه أحدٌ تَسْرَحُ كُلُّها ؛ فأيامُ الطُّروق أكثر من أيام عدمه ، فهى لذلك قليلة المسارح ، وإذا سمعن صوت المِزْهَر — وهو العود : آلة من آلاتِ الطرب — أيقنَّ أنهنَّ هوالك ، تَعْنى أنه لما كثر اعتياده نحرَ الإبل لقرى الضِّيفان ، واعتاد أن يَسْقيهم ويُلهيهم ، مُبالَغةً فى قِراهم وإدخالِ السرور عليهم ، صارت الإبل إذا سمعت صوت الموسيق عرفت أنها ستُنْحَرُ أَلْبَتَّةَ . . تمدحُ زَوجَها وتصفُه بأنه مضياف وثريٌّ نبيل . . . وقالت الحادية عشرة زوجى أبو زرع ، وما أبو زرع ؟ أناسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَىَّ ، أى أثقل أُذنىَّ بما جرتْ عادةُ النساء مِنَ التحلِّى به ، مِن قُرْط وشَنْف ، من ذهب وفضة ، حتى تدلَّى واضطرب ، والنَّوسُ : حركة كلُّ شىء مُتدَلٍّ ، وقولها : وملأ من شحم عضدىَّ ، لم تُرِد العضدَ وحْدَه وإنما أرادت الجسدَ كُلَّه ، لأنَّ العضد إذا سَمِنَتْ سَمِنَ سائرُ الجسد ، وخصت العضُد لأنه أقرب ما يلى بصر الإنسان من جَسَده . وقولها : وبَجَّحَنى فبَجِحَتْ

نفسى إلىَ تريد أنه عظَّمَنى فعَظُمت نفسى عندى ، وقيل : فرَّحنى ففَرِحت ، ثم قالت : وَجَدَنى فى أهل غُنَيْمَة بشق فجعلنى . . . الخ تقول : إنه وجدها فى شَظَف من العيش وجَهْد ومشقة ، فجعلها فى أهل صَهِيل ، أى خيل ، وأطيط أى إبل ، تريد أنه جعلها ذاتَ خير كثير ووسَّعَ عليها وَرفَّه عنها ، وَقولها : وَدائس وَمُنَقٍّ ، فالدائسُ : الذى يدوس الطعام وَيدقه ليخرجَ الحبَّ منه ، والمنقُّ من التَّنقيق — أى الصوت — تريد أصوات المواشى والأنعام ، وقال الزمخشرى : كأنها أرادت من يطرُدُ الدَّجاجَ عن الحبِّ فينِقُّ ، وجملة القول : أنها تصفه بكثرة أمواله ، وأنه ثقلها من شَظَف عيش أهلها إلى الثروة الواسعَة مِنَ الخيل والإبل والزرع وَغير ذلك .

ثم قالت : وعنده أقول فلا أُقَبَّح ، أى فلا يقال لى قبحك الله ، أى لكثرة إكرامه لها وَتدللها عليه لا يرد لها قولا ولا يُقَبِّح عليها ما تأتى به ، قالت : وأرقدُ فأتصبَّح ، أى تنام الصُّبْحة وهى نومُ أول النهار ، فلا تُوقظُ ، تشير إلى أن لها من يكفيها مُؤنَةَ بيتها وَمِهْنَة أهلها ، قالت : وأشربُ فأتقَنَّح ، وتروى : فأتقمَّح ، وكلتا اللفظتين معناهما : أشربُ اللبن فأروَى حتى أَدَعَ الشَّراب ، أرادت : أنها تشربُ حتى تَرْوَى وترفع رأسَها عن شُرْبه كما يفعل البعير إذا كره شرب الماء ، تشير بذلك كله إلى عِزِّها عنده وَكثرة الخير لديها . . وقولها عن أم أبى زرع : عُكُومُها رداح فالعكومُ الأحمال التى تجمَعُ فيها الأمتعَة ، وَالرِّداح : الثقيلة الكثيرة الحشو من الأثاث والأمتعَة ، ومن هذا قولهم : امرأةٌ رَدَاح : أى عجزاء — ذاتُ عَجيزة كبيرة — ثقيلة الأوراك تامَّة الخَلْق ، وبيتها فساح ، أى واسع ، وَتُروَى : فَياح ، وهو الواسع

كذلك ، تصف والدة زوجها وتكني بذلك عن كثرة الخير ورغد العيش والبر بمن ينزل بهم . وقولها عن ابن أبي زرع : مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ الشَّطْبَةِ ، قال بعض العلماء : الشَّطْبَة : ما شُطِبَ من جريد النخل ؛ وهو سَعَفُهُ : شبهته بتلك الشطبة لنعمته — ورفاهته — واعتدال شبابه ، وقال آخر : أرادت أنه مهزول كأنه سَعَفَة في دقتها ، أرادت أنه قليل اللحم دقيق الخصر ؛ فشبهته بالشَّطْبَة ، أي موضع نومه دقيق لنحافته ، وقيل : أرادت سَيْفًا سُلَّ من غِمْده ، والشطبة : السيف ، وقد شبهت العربُ الرجالَ بالسيوف إمَّا لخشونة الجانب وشدة المهابة ، وإما لجمال الرَّوْنق وكمال اللألاء ، قالت : ويُشبعُهُ ذراع الجَفْرة فالجفرة الأنثى من أولاد الضأن والماعز : ما بلغ أربعة أشهر وجَفَرَ جفناه وفصل عن أمه وأخذ في الرعي ، تمدحه بقلة الأكل ، وقولها عن بنت أبي زرع : طوع أبيها وطوع أمها : أي أنها بارَة بهما ، وقولها : وَملء كِسائها ، كناية عن نَعْمَة جسْمِها وكمال كيانها بوغيظ جارتها ، أي أنها لبراعتها ، وتفوقها تحسُدها جارتها فتغتاظُ منها حَسَدا ، والجارَةُ إما على حقيقتها وإما المراد بها الضَّرَّة ، كما روى أن عمر بن الخطاب قال لابنته حَفْصَة زوج المصطفى « لا يغرَّنك إنْ كانت جارتُك أضوأ منك وأحبَّ إلى النبي ﷺ » يريد عائشة رضي الله عنها ، وقولها عن جارية أبي زَرع : لا تَبُثُّ حديثنا تبثيثا ، وفي رواية : لا تَنُثُّ حديثنا تنثيثا ، ومعناهما واحد وهو إفشاء الحديث وإظهاره أي تُفشي حديثنا ولا تظهره للناس ، وقولها : ولا تُنقِّثُ مسيرَتنا تنقيثا ، أرادت : أنها أمينة على حِفظِ طعامنا ، لا تَنقُلُه وتُخرجُهُ وتُفرِّقُه ولا تملأ بيتنا تعشيشا : أرادت أنها نظيفة فلا تملأ بيتنا بالزبل ، كأنها عُشُّ طائر ، أو أرادت أنها لا تخوننا

فى طعامنا فتخبأ منه فى هذه الزاوية وفى هذه الزاوية ، كالطيور إذا عششت فى مواضع شتى ؛ ثم قالت أم زرع : خرج أبو زرع والأوطابُ تمخضُ ، فالأوطاب جمع وطب وهو وعاء اللبن ؛ تريد أنه خـــرج فى زمن الخصب وطيب الربيع ، وهى — تُمهِّد بذكر هذا للباعث على رُؤية أبى زرع للمرأة على الحالة التى رآها عليها ، أى أنها من تخض اللبن تعبت فاستقلت تستريح ، فرآها أبو زرع على هذه الحال ؛ قالت : فلقى امرأةً معها وَلَدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمَّانتين ؛ تريد أنهـــا ذاتُ كفل عظيم ، فاذا استلقت ارتفع كفلُها بها عن الأرض حتى يصير تحتها فجوةٌ تجرى فيها الرمَّانتان ، وقد أوَّل بعضهم الرمانتين بالثديين ، وفى هذا التشبيه إشارةٌ إلى ضغر سنها وأنها لم تترهَّل حتى ينكسر ثدياها ويتدلَّيا ، ثم قالت : فطلقنى ونكحها — أى تزوجها — فنكحتُ — تزوجت — بعده رجلا سَريا أى من سَرَاة الناس وخيارهم ، ركب شريًا ؛ أى فرساً يستشرى فى سَيْره أى يلجُّ ويمضى ويجدُّ فيه بلا فتور ولا انكسار ، ومن هذا يقال : للرجل إذا لجّ فى الأمر : قد شرِىَ فيه واستشرَى ، أو تقول شَريًا : أى فرساً خياراً فائقاً ، وشرى المال وشراته : خياره ، وأخذ خطيًّا ، أى رُمْحاً منسوباً إلى الخطّ — مكان تنسب إليه الرماح — وأراح علىّ نَعَما ثريًا ، أى أنه غزا فغنم فأتى بالنَّعم الكثيرة ، من إبل وخـــلافها ، قالت وأعطانى من كل رائحة زوْجا فالرائحة : الآتية وقت الرَّواح ، وهو آخر النهار ، وزوجا : أى اثنين ، وقال لها : كُلى أم زرع وميرى أهلك . . . الخ ميرى أهلك أى أوْسعى عليهم من الميرة وهى الطعام ، والحاصل أنها وصفته بالسؤدد والنبالة والشجاعة

والفضل والجود ، إذ أنه أباحَ لها أن تأكل ما شاءت من ماله وتهدِى منه ما شاءت لأهلها ، مبالغة فى إكرامها ، ومع ذلك فقد كانت أحواله عندها حَقيرَة بالإضافة إلى أبى زرع ، لأن أبا زرع ، كانَ أوَّل أزواجها ، فتمكنت محبته من قلبها ، و * ما الحب إلا للحبيب الأول * والله أعلم . . .

المرأةُ رَيْحانَة .

قال عبد الله بن المُقفَّع مِنْ كلِمَةٍ له — وهذه الكلِمَة جاءت فى نهج البلاغة منسوبةً إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه — :

« إيّاكَ ومُشاوَرَةَ النِّساء ، فإنَّ رأيهُن إلى أفْن ، وعزْمَهُنَّ إلى وَهْن ، واكفُفْ عليهنّ مِنْ أبصارهِنّ ، بحجابكَ إياهُنّ ، فإنَّ شِدَّةَ الحجاب خيرٌ لكَ مِنَ الارْتياب ، وليس خُرُوجُهُن بأشدَّ مِنْ دُخُولِ من لا تَثِقُ به عليهنّ ، فإنِ استطعْتَ أن لا يَعْرِفْنَ غيرَكَ فافعَلْ ، ولا تُمَلِّكَنَّ امرأةً مِنَ الأمْرِ ما جاوَزَ نَفسَها ، فانَّ ذلك أنعَمُ لحالها ، وأرْضى لِبالِها ، وأدْوَمُ لجمالِها ، وإنما المرأةُ ريحانةٌ وليستْ بقَهْرَمانة [1] ، فلا تَعْدُ بكرامتها نفسَها ، ولا تُطمِعْها فى أن تشفَعَ عِندكَ لغَيرِها » ، الأفْن بالسكون : النقص ، ورجلٌ أفين ومأفون : أى ناقص العقل ، ومن رواه : إلى أُفُن بالتحريك فهو ضعفُ الرأى والوَهْنُ : الضَّعْف ، وقوله : واكفُفْ عليهنَّ مِن أبصارهِن فمِن هَهُنا زائدة ، وهو مذهب أبى الحسَنِ الأخفش فى زيادة من فى الموجب ، ثم ذكرَ فائدَةَ

---

(١) الريحانة . الطاقة من الريحان وهو كل نبت طيب الريح من أنواع المشموم ، والقهرمان فارسى معرب بمعنى الخازن والوكيل : الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل ، أى أمين الدخل والخرج والأنثى قهرمانة وجمع القهرمان قهارمة .

الحجاب ونهى أن يدخل عليهن من لا يوثق به وقال : إن خروجهن أهون من ذلك ، وهذا لأن من تلك صفته يتمكن من الخلوة مالا يتمكن منه من يراهن فى الطرقات ، ثم قال : إن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل ؛ يروى أنه كان لبعضهم بنت حسناء فخج بها . وكان يعصب عينيها ويكشف للناس وجهها ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : إنما الحذر من رؤيتها الناس لا من رؤية الناس لها . . . ثم قال ابن القفع : ولا تملكن امرأة من الأمر ما جاوز نفسها أى لا تدخلها معك فى تدبير ولا مشورة ولا تتعدين حال نفسها وما يصلح شأنها ، فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة أى إنما خلقت لتستمتع بها فلا تفسد أنوثتها بتوسيد ما هو من شأن الرجال إليها ، ثم أكد ذلك بقوله : ولا تعد بكرامتها نفسها ، هذا ولمناسبة قولهم : المرأة ريحانة وليست بقهرمانة . يروى أن خالد بن يزيد بن معاوية وقع يوماً فى عبد الله بن الزبير ، وأقبل يصفه بالبخل ، وزوجه رملة بنت الزبير أخت عبد الله بن الزبير جالسة ، فأطرقت ولم تتكلم بكلمة ، فقال لها خالد : مالك لا تتكلمين ؟ أرضاً بما قلته أم تنزهاً عن جوابى ؟ فقالت لا هذا ولا ذاك ، ولكن المرأة لم تخلق للدخول بين الرجال ، إنما نحن رياحين للشم والضم فما لنا وللدخول بينكم ! فأعجبه قولها ، فقام وقبل ما بين عينيها ومر شاعر بنسوة ، فأعجبه حسنهن فأنشد :

إن النساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين

فأجابته واحدة منهن :

إن النساء رياحين خلقن لكم ... وكلكم يشتهى شم الرياحين

وشبيهٌ بهذين البيتين قولُ بعضهم :

أرَى صاحِبَ النِّسوان يحسبُ أنَّها ... سـواءٌ وبَوْنٌ بينهُنَّ بعيدُ
فمنهُنَّ جنَّاتٌ يَفِيءُ ظِلالُها ... ومِنهُنَّ نيرانٌ لهُنَّ وَقيدُ

ومما يتصلُ بهذا ما رُوِىَ أنَّهُ لما قتَل مُصعَبُ بنُ الزُّبير ابنةَ النُّعمانِ بنِ بَشير زوْجةَ المختارِ بنِ أبى عُبَيد أنكرَ الناسُ ذلك عليه وأعْظَمُوه ، لأنه أتى بما نَهى رسول الله ﷺ عنه فى نساء المشركين ، وفى ذلك يقول عمر بن أبى ربيعة :

إنّ مِنْ أعظم الكبائر عِندى ... قتلَ حَسْناء غادَةٍ عُطبُول[1]
قُتِلتْ باطِلاً على غيرِ ذَنْبٍ ... إنّ لله دَرُّها من قتيل
كُتِبَ القَتْلُ والقِتالُ علينا ... وعلى الغانياتِ جرُّ الذيُول

ولما خرجَتِ الخوارجُ بالأهواز أخذوا امرأةً فهمُّوا بقتلها فقالت لهم : أتقتلونَ من يُنشّأ فى الحِلْيَة وهو فى الخصامِ غيرُ مُبين[2] ! فأمسكُوا عنها ..

* * *

---

(١) العطبول : الشابة الجميلة الفتية .

(٢) اقتباس من الآية الكريم « أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فى الحِلْيَةِ وهو فى الخِصَامِ غَيْرُ مُبِين » قال الزمخشرى : يُنَشَّأ يُرَبَّى ، والحلية الزينة والنعمة ، ثم قال تفسيراً لقوله سبحانه وهو فى الخصام غير مبين : وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم[1] ومجاراة الرجال كان غير مبين : ليس عنده بيان ولا يأتى ببرهان يحج به من يخاصمه ، وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهن عن فطرة الرجال ، يقال : قلما تكلمت المرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها قال الزمخشرى : وفيه أنه جعل النشء فى الزينة والنعومة من المعايب والمذام وأنه من صفة ربات الحجال .

(١) قال فى اللسان : جثا يجثو . . . : جلس على ركبتيه للخصومة ونحوها .

وقد سَبَقَ الحجاجُ بن يوسف ابنَ المقفع إلى هذه الكلمة : إنما المرأةُ رَيْحانَة لا قهرَمانة ؛ أوهو — الحجاج — أخذها من على بن أبى طالب فقالها للوليد بن عبد الملك ، وذلك أن الحجّاج دخل على الوليد وعليه دِرْعٌ وعِمامةٌ سوداء وقوسٌ عربيةٌ وكِنانةٌ ، فبعثت إليه أمُّ البنين بنتُ عبد العزيز بن مروان — أخت عمر بن عبد العزيز — وهى تحتَ الوليد — زوجته — فقالت : مَن هذا الأعرابىّ المُستَلئِمُ فى السلاح عندك وأنت فى غلالَة؟ فبعثَ إليها : إنه الحجّاج ، فأعادت الرسول إليه ، فقال : تقول لك : والله لأن يخاوَ بك ملَكُ الموت أحيانا أحبُّ إلىّ مِنْ أن يَخلُوَ بك الحجاج ، فأخبره بذلك الوليد وهو يُمازِحُهُ ، فقال الحجاج : يا أميرَ المؤمنين ، دَعْ عنك مُفاكَهةَ النِّساء بزُخرُف القَوْل ، فانما المرأة ريحانةٌ وليستْ قَهْرَمانة ، فلا تُطْلعْها على سِرِّك ومكايدَةِ عدُوِّك ، فلما دخلَ الوليدُ عليها أخبَرها وهو يُمازِحُها بمقالَة الحجاج ، فقالت : يا أميرَ المؤمنين ، حاجتى أن تأمُرَهُ غداً بأن يأتينى مُسَلِّما ، ففعل ذلك ، فأتاها الحجاج ، فحجَبَتْهُ ، فلم يَزَلْ قائِما ، ثُمَّ قالت له : إيهٍ يا حجاج أنتَ المتنُّ على أمير المؤمنين بقتال ابن الزُّبير وابن الأشعَثْ[1] أما والله لولا أنَّ الله عَلِمَ أنَّك شرُّ خَلْقِه ما ابتَلاكَ برمْى الكَعْبَةِ الحرام ، وقَتْلِ ابنِ ذاتِ النِّطاقَين[2] أوَّلُ مَوْلودٍ وُلِدَ فى الإسلام ، وأمَّا نَهْيُكَ أميرَ المؤمنين عن مُفاكَهةِ النساء وباوغ لذَّاتِه وأوطارِه فإنْ كُنَّ يَنْفرِجْنَ عَنْ مِثْلِكَ فما أحَقَّه

---

(١) ابن الزبير : هو عبد الله بن الزبير ملك الحجاز ، وابن الأشعث : هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

(٢) هى أسماء بنت الصديق أبى بكر وأم عبد الله بن الزبير .

بالأخذ منك ، وإن كنّ ينفرجن عن مثله فهو غير قابل لقولك ، أما والله لقد نفض نساء أمير المؤمنين الطيب من غدائرهن فبعنه فى أعطية أهل الشام حين كنت فى المأزق المتضايق قد أظلتك رماحهم وأثخنتك صفاحهم ، وحتى كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم ، فأنجاك الله من عدو أمير المؤمنين بحبهم إياه ، قاتل الله القائل حين نظر إليك وسنان غزالة بين كتفيك :

أسدٌ علىّ وفى الحروب نعامةٌ ... ربداء تجفل من صفير الصافر (١)

هلاّ كررت على غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر (٢)

وغزالة : امرأة شبيب الخارجى ولها فى باب الشجاعة مكان » ثم قالت : اخرُج ، فخرج . . . . أمّا قولُ ابن المقفّع : ولا تُطمعها فى أن تشفع لديك لغيرها فإنّ من سوء السياسة أن يُطمع الرجلُ المرأةَ فى أن تشفع عنده لمستشفع كان من كان ، روى الزبير بن بكّار قال : كانت الخيزران كثيراً ما تُكلّم موسى الهادى ابنها وأخا هارون الرشيد لما استُخلف ، فى الحوائج ، وكان يُجيبها إلى كلّ ما تسأل ، حتى مضت أربعة أشهر من خلافته ، وتتالى الناس عليها وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو إلى بابها ، وكلّمته يوماً فى أمر فلم يجد إلى إجابتها سبيلا واحتجّ عليها بحجّة ، فقالت : لا بُدّ من إجابتى ، فقال : لا أفعل ، قالت : إنى قد ضمنتُ هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب موسى وقال : ويلى على ابن الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبها ،

(١ و ٢) قال هذه الأبيات . عمران بن حطان وقد كان الحجاج لجّ فى طلبه وقوله بل كان قلبك فى جناحى طائر يريد إما خفقان قلبه واضطرابه فزعاً وخوفاً وإما ذهاب قلبه من أصله ، ونعامة ربداء : لونها إلى الغبرة ، وتجفل : تسرع منزعجة نافرة .

والله لا قضيتُها لك ولا لهُ ، قالت : والله لا أسألُكَ حاجةً أبداً ، قال : إذن والله لا أبالى ، فقامت مُغضَبةً ، فقال: مكانَكِ تَستوْعِبى كلامى ، والله وأنا بَرىء من قرابتى من رسول الله ﷺ وآله لئن بلغنى أنه وقفَ أحَدٌ من قُوّادى وخاصّتى وخدَمى وكُتّابى على بابك لأضربنَّ عُنُقَهُ ولأقبضنَّ ماله ؛ فمَنْ شاء فليفعَلْ ، ما هـــذه المواكبُ التي تَغدو إلى بابك كُلَّ يوم ! أمالَكِ مِغزَلٌ يَشغَلُكِ أو مُصحَفٌ يُذَكّرُكِ أو بيتٌ يَصُونُكِ ! إيّاكِ ثم إياكِ أن تفتَحِى فاكِ فى حاجة لمِلّىٍّ أو ذِمّىٍّ ، فانصرفتْ وما تعقِلُ ما تطأُ عليه ، ولم تَنطِقْ عنده بحُلْوَةٍ ولا مُرّةٍ بعدها حتى مات » . . .

* * *

كيف تساس النساء :

ومن أحسَنِ ما أثر فى سياسة الرجل المرأةَ قولُ الفيلسوف الرئيس ابن سينا (إنّ المرأةَ الصالحةَ شَريكَةُ الرجُل فى مِلكِهِ ، وقيِّمتُهُ فى ماله ، وخليفَتُهُ فى رَحلِهِ — مَنزِله — وخيرُ النِّساء العاقلةُ ، الدَّيِّنةُ : الحَيِيَّةُ ، الوَدود ، الولود ، القصيرة الأسنان ، المطاوعة العِنان ، الناصحةُ الجيب[1] ، الأمينةُ الغَيب ، الرَّزانُ فى مجلس ، الوقورُ فى هَيْئتِها ، المهيبة فى فاقتِها ، الخفيفةُ المبتذَلةُ فى خدمَتِها لزوجها ، تُحسِنُ تدبيرَها ، وتكثِّرُ قليلَه بتقديرها ، وتجلو أحزانه بجميل أخلاقها وتُسلّى هُمومَهُ بلطيفِ مُداراتِها . . . وجماع سياسة

---

(١) يقال : فلان ناصح الجيب : أى نقى الصدر خالص القلب لا غش فيه ، والجيب فى الأصل طوق القميص ثم يطلق على القلب والصدر فيقال ناصع الجيب أى خالص القلب والصدر ، أى أمين ، قال (وخُنْتِ صَدْرًا جَيْبُهُ لَكِ ناصِحٌ) .

الرجُل أهلَهُ ثلاثةُ أُمور لا تدَعَهُ ، وهى : الهيبَةُ الشديدة ، والكرامةُ التامة ، وشغلُ خاطِرِها بالمهم . . . أما الهيبة فهى إذا لم تهَبْ زوجَها هان عليها ، فلم تسمَعْ لأمْرِه . ولم تُصْغِ لنَهيه ؛ ثم لم تَقْنَعْ بذلك حتى تقْهَرَهُ على طاعتها ، فتعودُ آمِرة ويعود مأمورًا ، وتصيرُ ناهِيةً ويصير مَنْهِيًّا ؛ وترجعُ مُدَبِّرةً ويرجع مُدَبَّرًا . وذلك هو الانتكاسُ والانقلاب ؛ والويلُ حينئذٍ للرجل ، ماذا يجلب له تمرُّدُها وطغيانُها ، ويَجْنيه عليها قِصَرُ رأيها وسوءِ تدبيرها ويسوقه إليه غيُّها وركوبُها هواها ؛ مِنَ العار والشَّنَار والهلاك والدمار ! فالهَيْبَةُ رأسُ سياسَة الرجل أهلَهُ وعمادُها ، وهى الأمرُ الذى ينسَدُّ به كلُّ خلَلٍ ، ويُتِمُّ تمامُه كُلَّ نقص ، وينوبُ عن كلِّ غائب ، ويُغْنى عن كل فائت ، ولا ينوبُ عنه شيء ، ولا يتمّ دونه أمرٌ ، فيما بين الرجل وأهله ؛ وليست هيبةُ المرأة بعلَها شيئًا غيرَ إكرامِ الرجل نفسَهُ ، وصيانةِ دينه ومُرُوءته ، وتصديقه وعْدَه ووعيدَه ...

أما كرامةُ الرجل أهلَهُ فمن مَنافعها أن الحرّةَ الكريمةَ إذا استَجْلَتْ كرامة زوجها دعاها استِدْآمَتُها لها ، وتُحاماتُها عليها وإشفاقها من زوالها ، إلى أمور كثيرة جميلة لم يكدِ الرجلُ يقدرُ على إثارتها إليها من غير هذا الباب : بالتَّكَلُّفِ الشَّديد والمؤْنَة الثقيلة ؛ على أنَّ المرأةَ كلما كانت أعظمَ شأنًا ، وأفخم أمرًا كان ذلكَ أدلَّ على نُبل زوجها وشرَفِه ، وعلى جلالَتِه وعِظَم خَطَرِه ؛ وكرامةُ الرجل أهلَهُ على ثلاثة أشياء : فى تَحْسينِ شارَتها ، وشِدَّةِ حِجابها ؛ وتركِ إغارَتها[1] .

---

(١) إغارة من الغيرة .

وأمَّا شغلُ الخاطرِ بالمهمّ فهو أنْ يتّصلَ شغلُ المرأة بسياسةِ أولادِها ، وتدبيرِ خدَمِها ، وتفقُّدِ ما يضمُّهُ خِدْرُها من أعمالها ؛ فإنّ المرأة إذا كانت ساقطةَ الشغل ، خاليةَ البال ، لم يَكُنْ لها همٌّ إلا التّصدّى للرجال بزينتِها ، والتّبرّجُ بهيأتها ، ولم يكن لها تفكيرٌ إلا فى استزادتِها ، فيدعوها ذلك إلى استصغارِ كرامته ، واستقصارِ زمانِ زيادتِه وتسخُّطِ جُملةِ إحسانِه ...

حثهم على منع النساء من الخمر وسماع الغناء

مما لا جِنّ به ولا خفاء أن الخمرَ تُهيّجُ العواطفَ وتبعثُ الشوقَ القديمَ الذى قد ضلّ فى الأحشاء ، وأنها تَبْلُغُ بشاربِها أن تشربَ عقلَهُ حتى يرى حَسَنًا ما ليس بالحسَنِ ، وأنها تَتْرُكُ الشّيخَ صبيًّا :

وتُـــريه الغىَّ رُشْدًا وتريه الرُّشْدَ غَـــيًّا

ولا جَرَمَ أنها تحدِثُ الطّرَبَ والأريحيّةَ وهما يخرُجانِ بصاحبِهما فى الأغلبِ إلى ما لا يتّفقُ والدِّينُ والخُلُقُ والكمالُ :

رأيتُ المُدامةَ غـــلّابةً تُهيّجُ للقلبِ أشواقَهُ
تسىء من المـــرء تأديبَهُ ولكن تحسّنُ أخلاقَهُ (١)

ومثلُ الخمر فى ذلك الغناء والموسيقى ، ومن هنا حضّ العُقلاء على منع النساء من شرب الخمر وسماع الغناء ، صَوْنًا لهن عن كل ما قد يُزَحْزِحُهُنّ عن دائرة كمالهن وما عساه أن يَمَسّ موضع الكرامة منهن . وما يوقعهُنّ فيما يُكرهُ ويُذَمّ منهن ...

---

(١) المتنبى ، وتحسن المرء أخلاقه لما تحدث فى شاربها من السماحة والبذل .

رَوَوْا : أن أعرابية عجوزاً[1] مرت بفتية حضريين يتعاطَوْن الراحَ ، فعاجتْ عليهم التماسا للراحة ، فسقوْها من خمرهم ، فلما نال منها الشراب وتمشت حُمَيَّا الكأس فيها قالت : أيشرَبُ نساؤكم هذا الشرابَ ؟ قالوا : نعم ؛ قالت : زَنَيْنَ إذن وربِّ الكعبة . . . أو ما هذا معناه ؛ ومن كلام فيلسوف الإسلام يعقوب بن الصباح الكندى فى ضرر سماع الغناء سواء أكان للرجل أم للمرأة : سماع الغناء برسام حادٌّ لأن الإنسان يَسْمَعُ فيطرَبُ فينفقُ فيسرفُ فيفتقرُ فيغتمُّ فيمتلُّ فيموت . . . وكان هذا الفيلسوف بخيلا وكثيراً ما كان يمدح البخل ولعل كلمته هذه نتاج بخله .

وقال الوليد بن يزيد بن عبد الملك : يا بَنِى أُمَيَّةَ ، إياكم والغناء ؛ فإنه ينقصُ الحياء ، ويزيد فى الشهوة ، ويهدمُ المروءة ، ويُثوِّر عَلَى الخمر ، ويفعل ما يفعل السُّكْرُ ؛ فإن كنتم لا بد فاعلين فجَنِّبُوهُ النساء فإنَّ الغناء رُقْيَةُ الزِّنَا ، وإنِّى لأقولُ ذلك فيه على أنَّهُ أحبُّ إلىَّ من كُلِّ لَذَّةٍ ؛ وأشهَى إلىَّ مِنَ الماء البارد إلى ذِى الغُلَّة ، ولكنَّ الحقَّ أحَقُّ أن يُقال .

وفى الحديث : أن النبى (ﷺ) قال لأنجَشَةَ وهو يحدُو بالنساء : رِفقاً أنجَشَةُ بالقوارير . (قال العلماء : أرادَ صلواتُ اللهِ عليه بالقوارير النساء ، شبَّههُنَّ بالقوارير لضعف عزائمهنَّ ، وقلة دوامهنَّ على العهد ، والقوارير : الزجاج ، يُسْرَعُ إليها الكسرُ ولا تقبلُ الجَبْر ، وكان أنجَشَةُ يحدُو بهنَّ ركبَهُنَّ ، ويرتجزُ بنَسِيب الشِّعْر والرجز وراءهُنَّ ، فلم يُؤْمَنْ أن يصيبهُنَّ ما يَسْمَعْنَ مِن رَقيق الشِّعْر فيهنَّ ، أو يقعَ فى قلوبهن حُدَاؤُهُ ، فأمر

---

(١) قيل : هى ليلى الأخيلية .

أنجشةَ بالكفِّ عن نشيده وَحُدَائِه حِذَارَ صَبْوَتِهِنَّ إلى غير الجميل . . .
وقال بعضهم : أراد عليه الصلاة والسلام أن الإبلَ إذا سمعت الْحُدَاء أسْرَعَتْ في المشي واشتدَّتْ فأزعجَتْ الراكب فأتعبتْهُ ، فَنَهَاهُ عن ذلك لأنَّ النساء يَضْعُفْنَ عن شدَّة الحركة : أقول : والحديث بهذا المعنى الثاني يكونُ مِنْ باب الوصاة بالنساء كما تقدم .

ورَوَوا : أن سليمانَ بنَ عبد الملك كانَ يَسْمُرُ ليلةً على ظهرِ سطح ، ثم دعا بوَضُوء فجاءتْ به جاريةٌ له ، فبَيْنَا هيَ تَصُبُّ إذ تلاهَت عنه ، فرَفَع رأسَهُ فإذا هي مُسْمِعَةٌ تَسْمَعُ مُغَنِّيًا كانَ بِنَاحِيَةِ العَسكَرِ ، فانْصَتَ له فسَمِعَه يُغَنِّي :

مَخْجُوبَةٌ سَمِعَتْ صَوتي فأرَّقَهَا ... في آخِرِ اللَّيلِ حَتَّى شَفَّهَا السَّهَرُ
تُدْنِي على جِيدِهَا بُتْنِيَ مُعْصَفَرَةٍ ... والحَلْيُ مِنها على لَبَّاتِهَا خَصِرُ
في لَيلَةِ النِّصْفِ ما يَدْرِي مُضَاجِعُهَا ... أوَجْهُهَا ما يَرَى أمْ وجهُهَا القَمَرُ
لَوْ خُلِّيَتْ لَمشَتْ تَحْوِي على قَدَمٍ ... تكادُ مِن رِقَّةٍ لِلْمَشْيِ يَنْفَطِرُ

فلَمَّا أصْبَحَ أُحْضِرَ لَدَيه ، فقال : ما اسْمُكَ ؟ قال : سمير ، فسأله عن الغناء فاعْتَرَفَ به ، قال : ما عَهْدُكَ به ؟

قال : الليلةَ الماضيةَ ، قال : وأين كنت ؟ فأشارَ إلى ناحيةِ العسكر ، قال : فما غنيت به ؟ فأخبَره بما سمع ، فأقبل سليمانُ على القوم . فقال : هَدَرَ الجملُ فَضَبِعَت الناقة (١) ، ونَبَّ التَيسُ فشَكِرت الشاة ،

---

(١) ضَبِعَت الناقة — بالكسر — تضبع ضَبَعا وضَبَعَةً : أرادت الفحل ، ونَبَّ التيس يَنِبُّ — بالكسر — نبا ونبيبا : صاح عند السفاد ، وشكرت الناقة — بالكسر — يريد : امتلات غُلْمَةً ، وزافت الحمامة : إذا مَشَت مُدِلَّة .

وهدر الحمام فزافت الحمامة ، وغنّى الرجل فطربت المرأة ، وما أحسب أنى تسمعُ مثلَ هذا إلاّ صبَتْ ، ثمّ أمرَ به فخُصِى ، ثمّ أمرَ عاملَه على المدينة : أن اخصِ مَنْ قِبَلَكَ من المُخنَّثينَ المُغنّين فخَصى منهم تسعة ، وكانَ سُليمانُ مُفْرِطَ الغَيْرَة ...

ومِن طريف مايُرْوَى فى هذه القصّة أن سليمان بن عبد الملك لمّا كتب إلى ابن حزم عامله على المدينة أمَر أن يُكتَبَ إليه أنْ يُحصِيَ المخنثين بالمدينة (بالحاء المهملة) ، أى يَعُدّهُم ليَرَى فيهم رأيَهُ ، فوقَع للكاتب نقطة على الحاء فصيَّرتْها خاء معجَمة . فلما وصل الكتاب إلى ابن حزم خصاهم من ساعته ، قالوا : ولمّا خُصِى طُوَيس قال : الآنَ أُعيدَ علينا الختانُ الأكبر ، فلَيْتَ هَذا مِن أوّل ، فقال له المخنّثُ الدلّال : بل هُوَ الختان الأكبر لكل مُخنّثٍ أبتر ، فقال نَسيم السَّحَر : الآنَ صِرْنا مُخنّثين خِصْيانًا حقاً ، فقال نَوْمُ الضُحَى : يا نسيم ، بل والله كنا مُخنّثين فصِرْنا نساءً ، فقال له جامع الأُنس : يا قوم ، استرحنا والله مِنْ حَمْل ميزاب البول ، فقال غُصنُ البان : أقْصِروا عن الكلام ، فإنكم والله جميعاً مَجانين ، فما الذى نصنَعُ بِسلاحٍ لا ينفع ...

* * *

وفى معنى قول سليمان بن عبد الملك : وغنّى الرجل فطربت المرأة قول البُرَيْقِ الهُذَلى :

مَعِى صاحِبٌ مِثْلُ حَدِّ السِّنَان شديدٌ عَلَى قِرْنِهِ مِخطَمُ

= « تُضيف من قولهم : ناقةٌ تُضيف إلى صوتِ الفحل : إذ سمعته أرادت أن تأتيه » ، والفيلم : الجارية الحسناء تستأنس إلى صوته وقيل : الجارية — الفتاة المُغْتَلِمَة — يصف صاحبه أنه ممن يدّعون أن صوته حسن حتى إن الفتاة المغتلمة تستأنس إلى صوته .

مِنَ المُدَّعِينَ إذا نُوكِروا تُضيفُ إلى صَوْتِهِ الغَيْـــلَمُ

حَضّهم على منع النساء من كُل ما يُصْبِيهِنَّ :

وكذلك كانوا يَحُضُّونَ على مَنْعِهِنَّ مِن كُلّ ما يُطْرِبُهُنَّ ويُصْبِيهِنّ ، قال بعضهم : إيَّاكَ أن تَتْرُكَ حُرْمَتَكَ تُصْغِى إلى قول عُمَرَ بن أبى رَبيعَة :

أَمِنْ آلِ نعْمٍ أنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ غَـــدَاةَ غَدٍ أمْ رائحٌ فَمُهَجِّرُ

فإنَّها تُطْرِبُ الغانياتِ وَ ... أقول : وأين تقعُ قافية ابن أبى ربيعة هذه مما يُغَنِّيه مُغَنُّونا اليوم من تلك الأغانى السُّوقيَّةِ الوَقِحَة السافِرَة المبتذلة الفاجرة التى تُؤثِّر أثرها السيء فى نفوس فتياتنا وفتياتنا ، وتُغْدِر فيهم فُحْشاً وَتَخَنُّثاً ! اللهم حَوالينا ولا علينا ولا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله .

أمَّا قصيدة ابن أبى ربيعة فإنّا نورد أكثرها هنا على الرغم من نهى هذا الرجل من إصغاء النساء إليها ، فإنّا من غُرَر القصائد ، وكان عبد الله بن عباس يحفظها ، فإذا ليم فى ذلك قال : إنَّها « أَمِنْ آلِ نُعْمٍ » ! يستجيدُها ، وإليك الأبيات التى اخترناها مع شرحها : قال :

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ غَـــدَاةَ غَدٍ أمْ رائحٌ فَمُهَجِّرُ

إلى أن قال :

فَلَمَّا فَقَدْتُ الصَّوْتَ مِنهم وَأُطْفِئَتْ مَصابيحُ شُبَّتْ بالعِشاء وأنـــؤُرُ

وَغابَ قُمَيْرٌ كنتُ أَرْجو غُيوبَهُ وروَّحَ رُعْيـــانٌ ونَوَّمَ سُمَّرُ

ونَفَّضْتُ عَنِّى العينَ أقبلتُ مِشيَةَ الـ مُحْبابِ وركنى خيفَةَ القَومِ أَزْوَرُ

فَحَيَّيْتُ إذْ فاجأتُهـــا فتولَّهَتْ وَكادَتْ بِمَكْنونِ التَّحِيَّةِ تَجْهَرُ

وقالَتْ ـ وَعَضَّتْ بالبَنانِ ـ فَضَحْتَنى وأنتَ امرُؤٌ ميسورُ أمرِكَ أعْسَرُ

أَرَيْتَكَ إذ هُنَّا عليك أَلَمْ تَخَفْ ... رَقيباً وَحَوْلِى مِن عَدُوِّكَ حُضَّرُ
فو اللهِ ما أدرى أتعجيلُ حاجةٍ ... سَرَتْ بِكَ أَمْ قدنامَ مَن كُنتَ تَحْذَرُ
فَقُلْتُ لها : بَلْ قادَنى الشَّوْقُ والهَوَى ... إليك وما عَين مِن الناسِ تَنْظُرُ
فيالكَ مِن لَيـــلٍ تقاصَرَ طولُهُ ... وما كانَ ليلى قَبلَ ذلك يَقصُرُ
ويالكَ مِن مَلْهًى هُناكَ ومَجْلِسٍ ... لَنَا لَمْ يُكَدِّرْهُ علينا مُكَدِّرُ
يَمُجُّ ذَكِىُّ المِسْكِ منها مُفَلَّجٌ ... رَقِيقُ الحَوَاشِي ذُو غُرُوبٍ مُؤَشَّرُ
يَرِفُّ إذا يَفْتَرُّ عَنـــه كأنَّهُ ... حَصَى بَرَدٍ أَوْ أُقْحُوانٌ مُنَوَّرُ
وتَرْنُو بِعَيْنَيْهَا إلَىَّ كما رَنَا ... إلى رَبْرَبٍ وَسْطَ الخَمِيلَةِ جُؤْذُرُ
فَلَمَّا تَقَضَّى اللَّيـــلُ إلا أقلَّهُ ... وكادَت تَوَالِى نَجْمِهِ تتغَوَّرُ
أشارَت بأنَّ الحَىَّ قد حانَ مِنهُمُ ... هُبُوبٌ ولـكن مَوعِدٌ لكَ عَزْوَرُ
فما راعَنِى إلاّ مُنـــادٍ بِرِحْلَةٍ ... وقد لاحَ مَفْتُوقٌ مِن الصُّبحِ أشقَرُ
فَلَمَّا رأت مَن قَد تَنَوَّرَ مِنهُمُ ... وأيقاظَهُم قالت : أشِرْ كيف تأمُرُ
فقلت : أُبادِيهِم فإمَّا أُفُوتُهُمُ ... وإمَّا يَنالُ السيفُ ثأرًا فيَثْأَرُ
فقالت : أتَحْقِيقاً لِمَا قال كاشِحٌ ... علينا وتَصديقاً لِمـــا كان يُؤْثَرُ
فإن كانَ ما لا بُدَّ منه فَغَيْرُهُ ... مِن الأَمْرِ أَدْنَى لِلْخَفَاءِ وأَسْتَرُ
أَقُصُّ على أُخْتَىَّ بَدْءَ حَدِيثِنا ... ومالِىَ مِن أَنْ تَعلَما مُتَأَخَّرُ
لَعَلَّهُما أَن تَبْغِيَا لك مَخرجاً ... وأَنْ تَرْحَبَا سِرْبًا بما قد كنتُ أُحْصَرُ
فقامَتْ كئيباً لَيس فى وَجْهِها دَمٌ ... مِنَ الحُزْنِ تَذْرِى عَبْرَةً تَتَحَدَّرُ
فقالَت لِأُخْتَيْهَا : أعِينا على فَتًى ... أَتَى زائِرا والأَمْرُ لِلأَمْرِ يُقْدَرُ
فَأَقْبَلَتَا فارْتَاعَتَا ثُمَّ قالَتـــا : ... أَقِلِّى عليكِ الهَمَّ فالخَطْبُ أَيْسَرُ

يَقومُ فَيَمْشِي بَيْننا مُتَنَكِّرًا فَلاَ سِرُّنا يَفْشو ولا هُوَ يَظْهَرُ
فَكان مَجَنِّي دونَ مَن كنتُ أتّقي ثلاثُ شُخوصٍ كاعِبانِ ومُعْصِرُ
فَلَمَّا أَجَزْنا ساحةَ الحَيِّ قُلْنَ لي أَلَمْ تَتَّقِ الأَعداءَ والليلُ مُقْمِرُ
وَقُلْنَ : أَهٰذا دأبُكَ الدَّهرَ سادِرًا أَما تَسْتَحِي أَوْ تَرْعَوِي أو تُفَكِّرُ

الشرح : « نُعْمٍ » اسم محبوبته ، « فَمُهَجِّرُ » : من هَجَّرَ الرَّاكِبُ : سار وقت الهاجِرَة ، « شُبِّبَت » أُوقِدَت ، « قَير » : تَصغير قَمَر ، وإنّما صغَّرَه لأنّه ناقِص عن التَّمام ، وهذا فى أوّل الشهر وآخره ، « رُعيان » جمع الراعى . « سُمَّر » جمع سامر ، وهم الجماعة يتحدّثون ليلاً ، « نَضَضْتُ عنّى النَّوم » وهذا كنايةٌ عن تَحْدِيدِ نَظَرِهِ وَشِدَّةِ حَذَرِه من الرُّقباء ، « الحُباب » حَيَّةٌ بعَيْنِه ، « رُكْنِي » يريد جانبى ، ورُكْنُ الشيء : جانبُه الذى تَستَنِدُ اليه وتقومُ به ، و « أَزْوَر » مائل فيه ازورارٌ وإنحرافٌ عن القَصْدِ وازْوَرّ عنه : عَدَلَ وانْحَرَف ؛ و « أريتك » كلمة تقولها العَرَب عند الاستخبار بمعنى أخبِرْنى ، و « ذو غرُوب » فَغَرْب كُلِّ شيء : حدُّه ، وإنّما يعنى الأَسْنان ، و « مُؤشَّر » فتشرير الأسنان : تحديد أطرافِها ، يكون خِلقَةً وصناعَةً ، و « تَرِفّ » تُبرق وتتلألأ ، و « تَرْنُو » فالرُّنُوّ : إدامةُ النظر مع سُكونِ الطَّرْف ، ورَناله : أدامَ النظر ، و « الخميلة : كلُّ موضع كَثُرَ فيه الشجر ، و « الربرب » القطيع من بقر الوحش ، و « جؤذر » ولد البقرة الوحشية ، يَصِفُ هيئة نظراتها المتتالية فى موضع لا تتفرّقُ فيه أشِعَّةُ البصر ، و « توالى نَجْمه تتغوَّر » فالتوالى : التوابع ، وتتغوَّر : تغورُ وتذهب ، و « حانَ منهم هُبُوبٌ » فالهبوبُ : الانتباه ، يقال : هَبَّ من نومه يهُبُّ : انْتَبَه ، و « عَزور » موضع ، و « مفتوق » مِنَ الفتق ، وهو انفلاق الصُّبْح ، و « أشقر » من الشُّقرة ، وهى حُمْرَةٌ صافيةٌ فى بياض ، و « أيقاظهم » جمع يقظ ، و « فقالت أتحقيقا » : أى أتفعل هذا تحقيقا ؟ ومن كلام العرب أكُلَّ هذا بُخْلاً ، وذلك أنه رآه يفعل شيئا أنكرَه فقال : أتفعلُ كُلَّ هذا بُخْلاً و « أبادِيهم » أى أظهرُ لهم ، غير مهموز ،

و بدأت هذا ، مهموزا ، اذا أردتَ به معنى الأوّل ، و« بدء حديثنا » أى أول حديثنا ، و «أن ترحبا» أى أن تتسعا ، أى تتسع صدورهما من قولهم فلان رحيب الصدر ، والسِّرب بكسر السين : الصدر ، يقال : فلان واسع السرب أى الصدر ، و « احصر » أضيق به ذرعا ، و « مجنى » تُرْمى ، و « ثلاث تخوص » كان الوجه ثلاثة شخوص ولكنه لما قصد المرأة أنّث على المعنى ، والمعصر : الفتاةُ التى قاربت الحيض .

* * *

الزهو والبخل والجبن والخفر

من محاسن النساء

قال على بن أبى طالب (خيارُ خصالِ النِّساء شِرارُ خِصالِ الرِّجال : الزَّهْوُ — يريدُ : الأنفَة والترفّع — والجُبْنُ ، والبخـــل ؛ فإذا كانت المرأةُ مَزْهُوَةً لم تُمكِّن من نفسِها[1] ، وإذا كانت جبانة فرِقَتْ — خافت — من كلّ شىء يعرِضُ لها[2] ، وإذا كانت بَخيلةً حفِظَتْ مالها ومالَ بَعْلِها) أقول وعلى العكسِ مِنْ ذلك إذا كانت سَمْحَةً ، فضلاً أنّهُ مَتَى عُلِمَ منها الجُود بما يُطلَبُ مِنْها فلرُبَّما جرّ الطمعُ فيها إلى أمْرٍ آخرَ وراء ذلك ، ولهذا جاء فى القرآن الكريم (فلا تخضَعْنَ بالقول فيَطمعَ الذى فى قلبه مرض) وربما جادت المرأة

---

(١) يعجبنى كل الإعجاب تلك المرأة المزهوة المترفعة ذات الشمم والأنفة والعزة ، وإذا كان الزهو مذموما فى الرجال فانّه فى النساء مما يحمد ويستحسن ويزيدهن جمالا وروعة وسلطانا على القلوب و بئست المرأة الذليلة المستخذية فقد وضعت نفسها الموضع الذى يعافه الرجال .

(٢) أو تقول : إن المرأة إذا جَبُنَتْ كفّت عن المساوىء خوفا على نفسها أو عرضها .

بالشيء فى غير موضعه ؛ قال عز وجل (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) قيل : النساء والصبيان ، وجملة القول « الجورُ فى الخَوَرِ مثل الشحِّ فى الرجُلِ »

وقال ابن الرومى :

ما للحسان مسيئات بنا ولنا ... إلى المسيئات طُولَ الدهر إحسانُ
فإن يَبُحْنَ بعهدٍ قُلْنُ مَعْذِرةً ... إنا نَسِينا وفى النِّسوان نِسْيانُ
لا نُلْزَمُ الذَّكر — إنا لم نُسَمَّ به ... ولا منحْناهُ بل للذِّكْرِ ذُكرانُ[1]
فَضْلُ الرجال علينا أن شيمَتَهم ... جودٌ وبأسٌ وأحلامٌ وأذهانُ
وأن فيهم وفاءً لا نقوم له ... وهَلْ يَقومُ مَعَ النُّقصانِ رُجْحانُ

وقال المتنبى :

بنَفْسى الخيالُ الزائرى بعد هَجْعَةٍ ... وقولتُهُ لى : بعدَنا الغُمْضَ تَطْعَمُ ؟
سلامٌ فلولا الخوفُ والبخلُ عنده ... لقلتُ : أبو حفصٍ علينا المسَلِّمُ[2]

وقال ابن نُباته السَّعْدِى :

كَسَلَى يزورُ معَ الظلامِ لها ... طيف فأعْدَى طيفها الكَسَلُ
بَخِلَتْ بما جادَ الرُّقادُ به ... ومِنَ الغوانى يحسُنُ البَخَلُ

---

(١) الذكر بفتح الذال وكسرها : التذكر .

(٢) يقول المتنبى فى البيت الأول : أفدى بنفسى الخيال الذى زارنى بعد ما نمت وقال لى معاتبا : أتنام بعد فراقنا ؟ وهل من فارقته أحبته ينام ؟ فالهجعة : الرقدة وقوله : بعدنا أى أبعدنا بهمزة الإنكار ، وطَعِمَ الشيء : ذاقه . ويقول فى البيت الثانى وقال لى الخيال : عليك سلام ، ثم قال المتنبى : ولولا أن هذا الخيال : بخيل لا يجود بمطلوبى وجبان لا يزور مجاهرا لحلى الابتهاج به والاجلال له على أن أظنه الممدوح يسلم علىّ .

وقال الشاعر الطُّغْرَائِيّ :

الجودُ والإقدامُ فى فِتْيَانِهم والبخل فى الفتيات والإشفاقُ
والرمْىُ فى الاحْداقِ دأب رُماتهم والراميَاتُ سهامُها الأحْدَاقُ

« و بعد » فاذا كان البخل والزَّهو والجبن مما يُحْمَدُ فى النساء ويُذَمُّ فى الرجال فالحياء وإن كان مما يُحْمَدُ فى الرجال فهو فى النساء أحْمد وأمثَل وأجْمل ، وما هو الحياء ؟ الحياء فضيلةٌ وَسَط بين رذيلتين هما الوَقَاحَة : التى هِىَ الجراءة على القبائح وعدم المبالاة بها ، والخجل الذى هو انحِصَارُ النفْسِ عَنِ الفِعْلِ مُطلقاً ، فالحياء إذن هو : انقباضُ النفسِ عن القبيح مخافَةَ الذَّمّ ، واشتقاقه من الحياة ، لأنه حالة تعترى القوة الحيوانية فتعوقها عن أفعالها المُنكَرَة المقبوحة ، والحياء خَلَّة تراها فى الأنبياء والصِّدِّيقين والصالحين والصالحات والطيبين والطيبات والعظماء من الرجال والنساء ، وعلى الجملة تراها فى كرام النفوس من الرجال والنساء ، أما قلة الحياء فلا تراها إلا فى لئام الناس ، والحياء مِن ثَمَّ قِوام الأخلاق الفاضلة ، فلولا الحياء لكان الانسان حيوانا بهيماً لا يبالى أى شىء يفعل .

وفى الحديث (الحياءُ مِنَ الايمان) قال ابن الأَثير فى النّهاية : جَعَل الحيـاء — وهو غريزة — — مِنَ الايمان — وهو اكتساب — لأنَّ المستحيي ينقطع بحيائه عن المعاصى وإن لم تكُنْ له تقيَّةٌ ، فصارَ كالإيمان الذى يقطع بينها و بينه ، وإنما جعله — أى الحياء — بعضَه — أى بعض الايمان لأن الايمان ينقسِمُ إلى ائتمار بما أمر الله به وانتهاء عمَّا نهى الله عنه ، فاذا حصلَ الانتهاء بالحياء كان بعضَ الايمان »

ومن جوامعِ الكَلِم قولُ سيـــدنا رسول الله (إذا لم تَستَحِى فاصْنَعْ ما شئْتَ) .

« يُقَال : استَحْيَا يَستَحْيِى واستَحَى يَستَحِى ، والأوَّلُ أعلَى ، أى أفصَح ، ولهذا الحديث الشريف تأويلان : أحَدُهُمَا ظاهرٌ وهُوَ المشهور ، أى إذا لم يَستَحِى من العَيْبِ لم تَخْشَ العارَ مِمَّا تفعله فافعل ما تُحدِّثُكَ به نفسُك من أغراضها ، حَسَنًا كانَ أوقبيحا

ولفظُه أمرٌ ومعناهُ توبيخٌ وتهديد ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الذى يَرْدَعُ الانسانَ عن مُوَاقَعَة السوء هو الحياء ، فاذا انخلَعَ منه كان كالمأمور بارتكاب كُلِّ ضلالة وتعاطى كُلِّ سَيِّئَة والثانى أن يُحْمَلَ الأمرُ على بابه ، يقولُ : إذا كنتَ فى فِعْلِكَ آمِناً أن تَسْتَحِىَ منه لجريكَ فيه على سَنَنِ الصَّواب وليسَ من الأفعالِ التى يُسْتَحْيَا منها فاصنَعْ منها ما شئت »[1]

وقال أبو تمام :

إذا لم تَخْشَ عاقِبَةَ الليالى ولم تَسْتَحْى فاصنَعْ ما تَشَاءُ
يعيشُ المـــرءُ ما استَحيَا بخير ويبْقى العُودُ ما بَقِىَ اللِّحاءُ

« اللحاء : قِشْرُ العُود والشَّجَرِ »

« وبعد » فلستُ فى الواقع أترامَى بما أسلَفْتُ إلى حضنهم :

النساء على الحياء لأن الحياء كما قلتُ ليس مما يجمل بالنساء فحسب وإنما يَشْرَكُ النساءَ فيه الرجالُ وإنما أقصدُ إلى أنَّ مِمَّا هو أَلْزَمُ بالنساء ويكدْن أن يستأثرن بوجوبه ما يُسَمُّونَه الخَفَرَ ، والخَفَر هو : شدة الحيـــاء ، يقال : خَفِرَت المرأة خَفَرا وخَفَارة . فهى خَفِرَة ومُتَخَفِّرَة وخفير ، مِن نِسْوَةٍ خفائر وخِفار ، على النَّسَب أو الكثرة . وتخفَّرت : اشتَدَّ حَيَاؤُها . . .

وقد مدح العربُ وغيرُ العربِ الخَفَر وأشادُوا به وجعلوه من محاسنِ المرأة — كما سيَمُرُّ بكَ فى باب العِفَّة ، ولكنا نَعْجَلُ ونوردُ شيئاً من ذلك هنا ، قال عز وجل يصفُ ذهاب ابنة شعيب عليه السلام إلى سيدنا موسى لتدعوَه (فجاءتْهُ إحْدَاهُما تَمشِى على استِحْيَاء) .

---

(١) وهذا هو مارواه المبرد عن المازنى ، قال : معنى إذا لم تستح فاصنع ماشئت ! أى إذا صنعت مالا يستحى من مثله فاصنع منه ما شئت .

وقال الفرزدق يصف نساءً :

يأنسْنَ عندَ بعولهنَّ إذا خَلَوْا ... وإذا هُمُ خَرَجُوا فهُنَّ خِفارُ

« خِفار : شَدِيداتِ الحياء »

وقال الشاعر الجاهلى الشَّنْفَرى من أبيات مُوفية على الغاية فى الصدق والجمال والرَّوْعَة وبراعَة الوصْف :

أميمَةُ لا يُخْزِى نَثاها حليلَها ... إذا ذُكِرَ النِّسْوانُ عَفَّتْ وجَلَّتِ

يَحُلُّ بمنجاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بيتُها ... إذا ما بيوتٌ بالمَلامَةِ حُلَّتِ

فقد أعجبتنى لا سقوطاً خمارُها ... إذا ما مشت ولا بذاتِ تلفت

كأنَّ لها فى الأرضِ نِسْيًا تَقُصُّهُ ... على أمِّها وإنْ تُحَدِّثْكَ تَبْلَتِ

فدَقَّت وجَلَّت واسْبَكَرَّت وأكملَتْ ... فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسنِ جُنَّتِ

النَّثا بتقديم النون : اسمٌ من نثا الحديث ينثُوهُ نثواً : حَدَّثَ به وأشاعَه ، حَسَنًا كان الحديثُ أو قبيحا ، يقول الشنفرى فى هذا البيت : إنَّ أخبارَها لا تُخْزِى زَوجَها لمكانِها من العفَّة ، فاذا ذُكِرَ النساء كانت هى العفيفةَ وَجلَّ قدرُها وعَظُمَ ، والبيت الثانى ليس فى حاجة إلى الشرح ؛ أما قوله فى البيت الثالث : لا سَقُوطاً خمارها إذا مامشت فانه أظنه يريد أنها تتعمد اسقاطَ خمارها حياء واحتشاماً وإمعاناً فى العِفَّة ،فهى ليست مِنْ أولئكَ النِّسْوة الخبيثات اللائى يُسْقِطْنَ خمارَهُنَّ يُرِدْنَ اظهار محاسنهن ، فخمارَها مفعول سَقوطاً ، وإنما قلت . لاتتعمَّد لأن مِنَ الآنسات الغِرَّة البلهاء[1] التى

---

(١) فتاة غرة : لا تعرف الشر غير مجربة وفى الحديث (المؤمن غر كريم والكافر خب لئيم) والخب اللئيم : الخداع المفسد ضد الغر ، والبلهاء : الغافلة عن الشر الحسنة الظن بالناس .

لا تفطن إلى الشر وتغفل عنه فتلبس البرقع وهى لم تعتده بعد فيسقط ، وهذا مما يُحمَد منهن ، وهناك من لا تتبرقع لأن الحسن زهاها أن تتقنع قال الأصمعى : وقد تاق المرأة خمارها لحسنها وهى على عِفّة ، قال أبو النجم :

منْ كُلّ غراء سَقُوطِ البرقع باهـــاء لم تُحفَظْ ولم تُضَيَّع (١)

ثم قال الشَّنْفَرَىّ . كأنها فى الأرض نسيًا ... البيت . فإن يُرِدْ شدّةَ استحيائها . يقول : لا ترفعُ رأسها ، كأنها تطلب شيئًا فى الأرض ، والنَّسْيُ هنا : ما أضاءَ أهلُه فيُطَابُ ويُطمعُ فيه ، وتقصه : تتبعه . قال جل شأنه « قالتْ لأخته قُصِّيه » .

« أى اتبعى أثره ، وقوله : على أمّها فالأمّ : القصْدَ ، وقوله : وإن تحدثك تَبْلَتِ : أى تقطع الحديث من خفرها وحيائها ، يقال : بلتَ الحياءُ حديثَها : أى قطعه ، ودقّت يزيد : دَقّ خصرها وأنقُها وحاجباها ، وجلّتِ : أى عظُمَ ساقاها وعضُدَاها وكل ما يحسُنُ عِظَمُه ، وهذا كما يقول عروة بن أُذَيْنَة :

بيضاءُ باكرَها النعيمُ فصاغَهـــا بلباقَةٍ فأدقَّها وأجَلَّهـــا

« واسبكرت : أى اعتدلت قامتها » .

ومن بديع ما قيل فى خفَر الشريفة وشدةِ حيائها قول أبى قيس بن الأسلت :

وَيُكْرِمُهَا جاراتُهَا فيَزُرْنَها وتَعْتَلُّ عنْ إتيانِهِنّ فتُعْذَرُ

وَليس لها أن تستهينَ بجارةٍ وَلـكنها منهنّ تحيا وتَخْفَرُ

« تحيا وتخفر : تستحيى ويشتد حياؤها » .

---

(١) يقول إنها لم تحفظ من الريبة لمكانها من الطيبة ولم يضيعها والدها ، والغراء من الغرة وهى بياض الوجه .

وقول الآخر :

من الأوانس مثل الشمس لم يرها ... فى ساحة الدار لا بعلٌ ولا جارُ

وقول الأعشى :

لم تمشِ ميلاً ولم تركب على جملٍ ... ولا ترى الشمس إلا دونها كالُّ[1]

ويقول الأعشى فى القصيدة التى منها هذا البيت :

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ... ولا تراها لسيرِ الجار تختتلُ

« تختتل : تتسمع لسيره ، يقال اختتلَ الرجلُ : اذا تسمّع لسيرِ القوم » .

ومما قيل فى مشى النساء :

قال عمر بن أبى ربيعة :

أبصرتها غدوةً ونسوتها ... يمشين بين المقام والحجرِ

بيضاً حسانا خرائداً قطفاً ... يمشين هونا كمشية البقرِ[2]

قد فزن بالحسن والجمال معاً ... وفزن رسلاً بالدلّ والخفرِ[3]

وقال العباس بن الأحنف :

شمسٌ مقدرةٌ فى خلق جاريةٍ ... كأنما كسحها طىٌّ الطوامير[4]

---

(١) الكالل : جمع كلة والكلة ما يسمى الناموسية .

(٢) الخرائد جمع خريدة وهى من النساء : الحيية الخافضة الصوت ، وقال الليث : سمعت أعرابيا من كلب يقول : الخريدة : اللؤلؤة لم تثقب وهى من النساء البكر ، وقطفا جمع قطوف ، وهى التى تقارب خطوها ، هذا وهم يستحسنون مشية البقر الوحشى .

(٣) الرسل هنا بفتح الراء : الذى فيه لين واسترخاء ، وسيرٌ رَسْلٌ : سهل .

(٤) الطوامير : الصحف واحدها طومار : وهو الصحيفة .

كأنها حين تمشى فى وصائفها ... تمشى على البيض أو زرق القوارير

وقال بعضهم :

شبهت مشيتها بمشية ظافر ... يختال بين أسنة وسيوف
صلف تناهت نفسه فى نفسه ... لما انثنى بسنانه المرعوف

وقال ابن مقبل :

يهززن للمشى أوصالاً منعمة ... هز الجنوب معا عيدان يبرينا[1]
أو كاهتزاز ردينى تناوله ... أيدى التجار فزادوا متنه لينا[2]
يمشين هيل النقا مالت جوانبه ... ينهال حينا وينهاه الثرى حينا[3]

أما قول الأعشى « لم تمشى ميلاً ولم تركب على جمل » البيت فقد أخذ هذا المعنى ذو الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد وزير عبد الرحمن الناصر ، إذ يقول :

ترى البدر منها طالعاً فكأنما ... يجول وشاحاها على لؤلؤ رطب
بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشا ... ومفعمة الخلخال مفعمة القلب
من اللاء لم يركبن فوق رواحل ... ولا سرن يوماً فى ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهن الدمام لنشوة ... وشدو كما تشدو القيان على الشرب

« بعيدة مهوى القرط كناية عن طول العنق وحسن الجيد ، والقرط : الشنف يعلق فى شحمة الأذن ، ومخطفة الحشا : ضامرة ، ومفعمة الخلخال كناية عن ربالة الساق

---

(١) يبرين : قرية كثيرة النخل والعيون العذبة بحذاء الأحساء بالبحرين والعيدان جمع عيدانة وهى النخلة الطويلة والجنوب : ريح الجنوب .

(٢) الردينى : الرمح .

(٣) النقا : الرمل ، والثرى : التراب الندى .

ومفعمة القلب — السوار — كناية عن رَبَالة معصَمِها ، وقوله من اللاء لم يرحلن . . . البيت يقول إنهن ذواتُ رَفاهية ونَعْمة ، ودَعة ورغَد عيش ولَسْنَ من البادِيات الخشِنات اللاتى يرتحلن فوق الإبل للهُجْمَة ، وقوله ولا أبرزتهن المدام ... البيت يقول : إنهن مع ترفهن لسْنَ من الإماء ولا مِنَ القيان — اللَّواتى يُبْتَذَلْنَ فى الغِنَاء والمنَادَمَة أى أنهنَّ مَصُونَاتٌ عَفِيفَاتٌ » .

ولما أُنشد بشار بن بُرْد قولَ الشاعر :

إلا إنَّما ليلى عَصَا خيزُرانَةٍ إذا غَمَزُوها بالأكُفِّ تَلِينُ

قال : والله لو زَعَمَ أنَّها عصا مُخّ أو عصا زُبْدٍ لقد كانَ جَعَلها جافية خَشِنَةً بعد أنْ جعلها عَصًا ! ألاَ قال كما قلت :

ودَعْجاء المحاجِرِ من مَعَدٍّ كأنَّ حديثَها ثمرُ الجنانِ
إذا قامت لمشيتِها تثنَّتْ كأن عِظامَها من خَيزُرانِ

* * *

ونختتم هذا باب الحياء والخفر — بهذين البيتين الجميلين :

بنفسى وأهلى منَ إذا عَرَّضُوا لهُ ببعض الأذى لم يدْرِ كيف يُجِيبُ
ولم يعتذر عُذْرَ البرىِّ ولم تزل به سَكْتَةٌ حتى يُقَالَ مُرِيبُ

حضُّهم النساء على الحشمة ونهيُهم إيَّاهُنَّ عن التبرُّج :

نورد فى هذا الموضع شيئاً من تعاليم الإسلام فى الحضِّ على احتشام النساء وترك التبرج وكل ما هو مَدْرَجَةُ مَزَالِقِ الأقدام ، وهى تعاليمُ سامية كأن المسلمينَ لم يَعْرِفوها ولم يتفطَّنوا إلى مرَامِيها ... ومِنْ ثَمَّ أفردْنا لها بابًا :

قال عز وجل (يأيها النبىُّ قُلْ لأزْوَاجِك وبناتِك ونساء المؤمنين يُدْنِينَ عليهنَّ من جَلاَبِيبهن ، ذلك أدنى أن يُعْرَفن فلا يُؤْذَين) .

« يدنين عليهن من جلابيبهن : يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن وذلك أن النساء كن فى أول الإسلام على هيئتهن فى الجاهلية متبذلات . تبرز المرأة فى درع وخمار ، فأمرن أن يغطين وجوههن كى يتميز الحرائر من الإماء والقيان والماهنات ، وكان الفتيان والشطار يتعرضون — إذا خرجن بالليل إلى قضاء حوائجهن فى النخيل والغيطان — للإماء ، وربما تعرضوا للحرة بعلة الأمة ، يقولون حسبناها أمة ، فأمرن أن يخالفن زيهن عن زى الاماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرءوس والوجوه ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن طامع ! » .

* * *

وقال سبحانه « يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم * والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم » .

« أمر سبحانه بأن يستأذن العبيد والإماء والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ثلاث مرات فى اليوم والليلة : قبل صلاة الفجر ، لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة ، وبالظهيرة لأنها وقت وضع الثياب للقائلة وبعد صلاة العشاء لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم ، وسمى سبحانه كل واحدة من هذه الأحوال عورة لأن الناس يختل تستترهم وتحفظهم

فيها ثم عذرهم فى ترك الاستئذان — استئذان الاماء والعبيد والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم وراء هـذه المرات ، وبين وجه العذر فى قوله (طوافون عليكم) يعنى أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام ثم قال سبحانه (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا فى جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا باذن ، والحاصل أن الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن إلا فى العورات الثلاث فاذا اعتادوا الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حد الطفولة بأن يحتلموا أو يبلغوا السن التى يحكم عليهم فيها بالبلوغ وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذنوا فى جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين يجب عليهم أن لا يدخلوا إلا باذن — انظر آية الاستئذان بعد) ثم قال سبحانه « والقواعد من النساء — اللاتى قعدن عن الحيض والولد لكبرهن — اللاتى لا يرجون نكاحا — لا يطمعن فيه لكبرهن — فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن — أى الثياب الظاهرة كالجلباب : — غير متبرجات بزينة غير مظهرات زينة مما أمرن باخفائه فى غير ما آية وأن يستعففن خير لهن — أى من الوضع لأنه أبعد من التهمة وبعد فاعتبروا أيها الناس بهذه الآية الكريمة التى تحض على الاحتشام والبعد عن المزالق والريب حتى مع الأطفال والخدم ، وأى خدم — الاماء والعبيد » .

وقال عز وجل (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة

مِنَ الرجال ، أو الطِّفْل الذينَ لم يَظْهَـــرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النساء ، وَلا يَضْرِبْنَ بأرجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) .

« يَقُولُ سُبْحانه لرسولِه الأَمِين : قُلْ لِلْمُؤْمِنِين يَغُضُّوا أَبْصَارهم عن كلِّ مُحَرَّم عليهم وأَنْ يَقْصُرُوها عَلَى ما يَحِلُّ ، وأن يَسْتُروا عَوْرَاتِهم [1] ، فإنَّ ذلكَ أَزْكَى لَهُمْ وأَطْهَر ، لما فيه من البُعْدِ عَنِ الرِّيبَة ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحانه أَنَّهُ خَبِيرٌ بأفعالِهم وأحوالِهم وكيفَ يحيلونَ أبصارَهُمْ ، وكيفَ يَصْنَعون بِسائِرِ حَواسِّهم وَجوارِحِهم ، فعليهم إذا عَرَفُوا ذلكَ أَنْ يكونوا منه على حَـــذَرٍ في كلِّ حَرَكَةٍ وسكون ، وكذلك قلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ أن يَغْضُضْنَ أَبصارَهُنَّ ، فلا يَنْظُرْنَ إلى ما لا يَحِلُّ لَهُنَّ النَّظَرُ إليه مِنَ الرِّجال ، حَدَّثَتْ أُمُّ سَلَمَة رضى الله عنها قالت :

كُنْتُ عندَ رسولِ الله ﷺ وعندَه مَيْمونَة فأقبلَ ابنُ أُمِّ مكتوم — الأَعْمَى — وذلك بعد أَنْ أُمِرْنَا بالحِجَاب ، فدخلَ علينا ، فقالَ رسولُ الله : احْتَجِبا ، فقلْنا : يا رسولَ الله ، أَلَيْسَ أَعْمَى لا يُبْصِرنا ؟ قال : أَفَعَمْيَاوانِ أَنْتُما ألستما تبصرانِه ؟ وإنما قَدَّمَ سبحانه غَضَّ الأَبْصارِ عَلَى حِفْظِ الفروج لأنَّ النظرَ بريد الزِّنا ورائد الفجور ، والبَلْوى فِيهِ أَشَدُّ وأكثر ولا يكاد يُقْدَر على الاحْتِرَاسِ منه :

ثم قالَ سبحانه : ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا ما ظَهَرَ منهـــا ، فالزِّينَةُ :

---

(١) فالمراد بحفظ الفروج سترها وقيل المراد النهى عن الزنا ، وقد آثرنا الأول تبعا لقول بعض علمائنا : كل ما فى القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا هذا فان أراد به الاستتار ، والفرج : العورة .

ما تزينت به المرأة من حُلِيّ أو كُحْل أو خِضاب ، فما كان ظاهرًا منها كالخاتم والفَتَخَة [1] ، والكحل والخضاب فلا بأس بإظهاره للاجانب ، وما وما خُفِيَ منها كالسِّوار والخلخال والدُّمْلج والقلادة والإكليل والوشاح والقُرْط فلا تُظْهِرُهُ إلا لهولاء المذكورين بعد ، وإنما ذكر الزينة دون مواضعها للمبالغة فى الأمر بالتصوُّن والتستُّر ، لأنَّ هذه الزينة واقعةٌ على مواضعَ من الجسد لا يَحِلُّ النظرُ إلا لمن استثنى فى الآية بعد — وهى الذِّراع والسَّاق والعَضُد والعُنُق — والرأس والصَّدْر والأُذُن — فنهى عن إبداء الزينة نفسها ليُعْلَمَ أنَّ النظر إذا لم يَحِلَّ إليها لملابستها تلك المواضع كان النظر إلى المواضع نفسها متمكِّنًا فى الخطر ثابت القدم فى الحُرْمة شاهداً على أنَّ النساء يَجْمُلُ أن يحتطنَ فى سَتْرها ويَتَّقِينَ الله فى الكشف عنها . وإنما سُومِحَ فى الزينة الظاهرة لأنَّ سَتْرَها فيه حَرَج ، فانَّ المرأة لا تجدُ بُدًّا من مُزاوَلة الأشياء بيدها ، ومن الحاجة إلى كشف وَجْهِها خُصوصاً فى الشهادة والمحاكمة والزَّواج وتَضْطَرُّ إلى المشى فى الطرقات وظهور قدميها وخاصَّة الفقيرات منهنَّ ، فقوله سبحانه : إلاَّ ما ظَهَرَ منها يعنى إلا ما جرَتْ العادة على ظهوره وكان الأصلُ فيه الظهور وإنما سُومِحَ فى الزينة الخفيَّة لأولئك الذين استثناهم لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مُداخلتهم ومُخالطتهم ، ولقلَّة توقُّع الفتنة من جهاتهم . ولما فى الطباع من النُّفْرة عن مُمارسة القرائب . ثم قال سبحانه : ولا يَضْرِبْنَ بخُمُرهن على جُيوبهنَّ ، فقد كانت جُيوبُهنَّ — قبَّاتهنَّ — فى الجاهلية واسعةً تبدو منها نُحورُهنَّ وصُدورُهنَّ وما حولها ، وكنَّ يَسْدُلْن

---

(١) الفَتَخَة محركة : حلقة من فضة لا فَصَّ فيها ، فاذا كان فيها فَصٌّ فهو الخاتم

الخمر — القانع — من وراءهن فتبقى مكشوفة ، فأمرن بأن يسدلنها من من قدامهن حتى تتغطى أعناقهن ونحورهن ...

وعن عائشة رضى الله عنها ما رأيت خيرا من نساء الأنصار ، لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن إلى مرطها فصدعت — شقت وقطعت — منه صدعة فاختمرن تقنعن — فأصبحن على رؤسهن الغربان[1] وقوله سبحانه : ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن الآية : بيان لمن يحل له الابداء ومن لا يحل ، وقوله . أو نسائهن يعنى المؤمنات ، لأنه ليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدى مشركة أو كتابيـــة فإن الكافرات لا يتحرجن عن وصفهن للرجال ، وقيل : النساء كلهن : وللعلماء فى ذلك خلاف ، وقوله : أو ما ملكت أيمانهن ، يعنى الإماء والعبيد ، لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمة بعبد وهبه لها وعليها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها : فقال عليه الصلاة والسلام : « إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك » وقيل : المراد بها الإماء ، وهذا هو الحق ، لأن عبد المرأة بمنزلة الأجنبى منها ، خصيا كان أو فحلا ، وعن ميسون بنت بحدل الكلابية : أن معاوية دخل عليها ومعه خصى ، فتقنعت منه ، فقال : هو خصى ، فقالت : يا معاوية أترى أن المثلة به تحلل ما حرم الله ، وعند أبى حنيفه لا يحل استخدام الخصيان وإمساكهم وبيعهم وشراؤهم : أقول : فليأتوا فلينظروا بيوت أغنياء المسلمين . كيف تزخر بالرجال وكيف لا يتورع نساؤهم عن استخدام الخصيان والفحول وكل من

---

(١) شبهت الخمر فى سوادها بالغربان ، جمع غراب .

هَبَّ وَدَبَّ فاللهم حوالينا وَلا علَيْنَا : ثم قال سبحانه : أو التابعينَ غير أُولى الإِرْبَة مِنَ الرِّجال « أى غير أُولى الحاجَة إلى النساء وَهم الشيوخ الصُّلَحاء أو الشيوخ الذين بهم عنانة وَقيل : هم الذين يَتْبَعُونكم ليُصِيبُوا مِنْ فَضْلِ طَعَامِكم وَلا حاجةَ لهم إلى النساء لأنهم بُلْهٌ لا يعرفون شيئًا من أمرهنّ

وَأما قوله سبحانه : أو الطِّفْل الذينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء فالطِّفْلُ جِنْسٌ وُضِعَ مَوْضِعَ الجَمْع اكتفاءً بِدَلالَةِ الوَصْفَ ، ويَظْهَرُوا : يطَّلِعُوا ، والمعنى : أوالأطفال الذين لم يَطَّلِعُوا على عَوْرَاتِ النِّساء لعدم تمييزهم أو لعدم بلوغِهم حَدَّ الشَّهْوَة ، فيكونُ الظهورُ بِمَعْنى الغَلَبَة ، وهنا ينتهى عددُ الذين يَحِلُّ للمرأة المؤمنَةِ أن تُظْهِرَ زينتَها الخفيَّة لَهُمْ : قال الزَّمَخْشَرى : فإنْ قُلْتَ : لِمَ لَمْ يَذْكُرِ اللهُ الأعمام والأخوال ؟ قلت : سُئِلَ الشعبىّ فى ذلك ! فقَالَ : لئلاَّ يَصِفَها العَمّ عند ابنـــه ، والخالُ كذلك ، ومَعْنَاهُ : أنَّ سائرَ القرابات تَشْتَرِكُ الأَبَ والابنَ فى المَحْرَمِيَّة ، إلاَّ العَمَّ والخالَ وأبناءهما ، فاذا رآها العَمُّ فربما وصَفَها لابنهِ وليس بِمَحْرَم فيُدانى تصوّرُهُ لها بالوصف نظرَهُ إليها ، وهذا أيضًا من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن فى التَّسَتُّر ؛ ثم قال سبحانه : ولا يَضْرِبْنَ بأرجُلِهِنّ ليُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زينتهنّ ... قالوا : كانَت المرأةُ فى الجاهليَّة تضربُ الأرضَ برجْلِها ليَتَقَعْقَعَ خَلْخَالُهَا فيُعْلَمَ أنَّها ذات خَلْخَال ، وقيل : كانت تضربُ بإحدى رِجْلَيْهَا الأخرى ليُعْلَمَ أنها ذات خَلْخَالَيْن فنهاهُمُ اللهُ عن مثل هذا لأنَّه يورِثُ مَيْلا فى الرجَالِ ...

* * *

وقال سبحانه (يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون بصير) .

* * *

وقال عز وتقدس (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً * وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا * واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً * إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما *

* * *

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ (المرأة عورة[1] فاذا خرجت

---

(١) عورة : أى أنها موصوفة بهذه الصفة ومن هذه صفته فحقه أن يستر والمراد أنه يستقبح ظهورها للرجل ، والعورة : سوءة الانسان وكل ما يستحى منه ، كنى بها ، عن وجوب الاستتار فى حقها ، والعورة فى الأصل : كل خلل يتخوف منه ، وقال بعضهم : العورة كل ما يستحى من إظهاره وأصلها من العار وهو المذمة .

استشرفها الشيطان [1] وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهى فى قعر بيتها) .

وروى عنه — عن ابن مسعود — رضى الله عنه أن امرأته سألته أن يكسوها جلبابا ، فقال : إنى أخشى أن تدعى جلباب الله الذى جلببك به ، قالت : وما هو ؟ قال : بيتك ، قالت : أجنك من أصحاب رسول الله ﷺ ؟)

« قولها : أجنك معناه : من أجل أنك » .

* * *

وروى أن عمر بن الخطاب : قال للنساء اللاتى يخرجن إلى المسجد : لأردد كن حرائر .

« أى لألزمكن البيوت فلا تخرجن إلى المسجد ، لأن الحجاب إنما ضرب على الحرائر دون الإماء » .

* * *

« وبعد » فإن من أنعم النظر فى هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ونظائرها وهى كثيرة تحقق أن نساء المسلمين مأمورات بالاحتشام وبلون من الحجاب هو عدم التبرج ، وأن الأفضل لهن أن يقرن فى بيوتهن

---

(١) استشرفها الشيطان يعنى رفع رفع البصر إليها ليغويها او يغوى بها فيوقع احدهما او كليهما فى الفتنة او المراد شيطان الانس سماه به على التشبيه بمعنى ان اهل السفق إذا رأوها بارزة طمحوا بأبصارهم نحوها والاستشراف فعلهم لكن اسند إلى الشيطان لما اشرب فى قلوبهم من الفجور ففعلوا ما فعلوا باغوائه وتسويله وكونه الباعث عليه ذكره القاضى وقال الطيبى هذا كله خارج عن المقصود والمعنى المتبادر انها ما دامت فى خدرها لم يطمع الشيطان فيها وفى إغواء الناس فاذا خرجت طمع وأطمع لأنها جبانة وأعظم فخوخه وأصل الاستشراف وضع الكف فوق الحاجب ورفع الرأس للنظر .

وإذا هن خرجن فالواجب عليهن أن يحتشمن ويبتعدن عن كل ما يدعو إلى الافتتان بهن ؛ وإذا كانت الآية الكريمة التى خوطب بها نساء النبى خاصةً بهن فى الظاهر فهى من الخاص الذى أريد به العام ولا سيما إذا ضم إليها سائر الآيات ، أو يقول إن مضمونها هو المثل الأعلى لما يجب على المرأة المسلمة ، أعنى أن ما أُمِرَ به نساء النبى هو القدوة والأُسْوة ، وإذن فالأفضل لسائر المسلمات أن يمتثلن هذه الأوامر ويأتمرن بها .

الكفـــاءة

وحضُّهم على تزويج النساء من أكفاء الرجال

الكفاءة : مساواةُ الرجل المرأة فى النسب والاسلام والحِرْفَة والحُرِّيَّة والديانة والمال[1] ، والكفاءةُ معتبَرَةٌ فى جانب الرجل لا فى جانب المرأة ، فللرجل أن يتزوج من يشاء ولو أمَةً أو خادِمًا ، ولأن الكفاءةَ معتبرةٌ فى جانب الرجل ، فكأنها تَمُتُّ إلى الوصاة بالنســـاء بسبب واصل ، وضعنا عبقرياتهم فيها عقيبَ بابِ الوصاة بالنساء .

حضهم على اعتبار الكفاءة فى الرجال :

فى الحديث الشريف (تَخَيَّرُوا لنُطَفِكُم وأَنْكِحوا الأكفاء) ومعنى الحديث : الحثُّ على اختيار الزوجة ، أى تَحَرِّى ما هو خيرُ المناكح وأطهرُها وأبعدها عن الخُبْثِ والفجور (انظر حضهم على اختيار ذوات الدين والحسب) والشطر الثانى من الحديث معناه : الحث على اختيار الزوج الكفء . وفى الحديث (إذا خَطَبَ إليكم مَنْ تَرْضَونَ دِينَه وخُلُقَه فَزَوِّجُوه ، إنكم إلا تَفْعَلوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فى الأرض وفساد عريض) وقال عمر بن الخطاب لا منعن فروج ذوى الأحساب إلا من الأكفاء . وقال الحسن البصرى لرجل استشاره فى تزويج بنته : زوجها من تقى فإنه إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

وقال عمر بن الخطاب : لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكم على الرجل القبيح فإنهن يُحِبِّنَ ما تحبون .

---

(١) انظر القول على الكفاءة وشروطها وتفصيل ذلك فى كتاب الفقه خصوصا كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ج ٤ .

« انظر الدمامة والقبح » .

وقيل لحكيم : فلان يخطب فلانة ، قال : أموسرٌ من عَقْلٍ ودِينٍ قالوا نعم ، قال : فزوِّجوه .

وقال عبد الملك بن مروان لامرأةٍ من قريش تزوَّجتْ رجلا مَغْمُوصا عليه[1] : أتنكِحُ الحرَّةُ عبدَها ! فقالت : يا أمير المؤمنين :

إنَّ المهورَ تُنكحُ الأيامَى النِّسْوَةَ الأرامِلَ اليَتَامَى

المرء لا تبغي له سلامَا

« الأيامى جمع أيم ، وهى : التى لا زوج لها بكرا او ثيبا . والمرء مفعول ثانٍ لتنكح والأيامى مفعول أول . تقول : إن المهور — جمع مهر — تغرى إلىَ حدٍّ أنها تجعل النساء ترْضي بالتزوج من المرء لا تبغى له سلاما » .

ومثل هذا ما روى أنه لمَّا زوَّجَ ابراهيمُ بن النعمان بن بَشير الأنصارى يَحْيي بن أبى حفصة — جد مَرْوان بن أبى حفصة الشاعر — وكان يحيي هذا من أجود الناس ، وكان ذا يسار ، وكان مولى لعثمان بن عفان وكان أبوه يهوديا أسلم على يد عثمان ، فلما زوجه ابراهيم ابنته على عشرينَ ألفَ درهم قال قائل يُعيِّرُه :

لَعمرى لقد جَلَّلْتَ نفسك خِزْيَةً وخالَفْتَ فِعْلَ الأكرمين الأكارمِ[2]

ولو كان جَدَّاكَ اللذان تتابعا بِبَدْرٍ لَمَا رَامَا صَنِيعَ الآلائِمِ

فقال ابراهيم بن النعمان يَرُدُّ عليه :

ما تركتْ عِشرونَ ألفاً لِقَائِلٍ مقالا فلا تَحفِلْ مَلامَةَ لائِمِ

---

(١) يقال : رجل مغموص عليه فى حسبه ودينه أى مطعون عليه فيهما .

(٢) جللت : غطيت كما يتجلل الرجل بثوبه ، وخزية بفتح الخاء وكسرها : البلية أو الجريمة يستحى منها .

وإنْ أكُ قد زَوَّجْتُ مَوْلى فقد مَضَتْ ... به سُنَّةٌ قَبْلِي وَحُبُّ الدراهم

* * *

ورَوَوْا : أن يحيى بن أبى حفصة هذا خطب إلى مُقاتل بن طَلْبَة بن قيس بن عاصم المِنْقَرِى سيِّدِ أهل الوَبَر : ابنتَه وأُخْتَيْه ، فأنْعَمَ له بذلك ، فبعث يحيى إلى بَنِيه سُلَيم ، وعمرَ وجميل ، فأتَوْهُ بالجُفْر[1] ، فزوجهن بنيه ، ودخلوا بهن ، ثم حملوهن إلى حَجْر[2] ، وفى ذلك يقول الشاعر القُلاَخُ بنُ حَزْن المِنْقَرِىّ :

نُبِّئْتُ خَوْلَةَ قالت حين أنكحها ... لطالما كنتُ منكَ العارَ أنتظر[3]

أنْكَحْتَ عبدَيْنِ تَرْجُو فضلَ مالهما ... فى فيكَ مِمَّا رَجَوْتَ التُّرْبُ والحَجَرُ[4]

لله دَرُّ جيادٍ أنتَ سائِسُها ... بَرْزَنْتَها وبِها التَّحْجِيلُ والغُرَرُ[5]

وقال آخر فى هذه القصة :

ألا ياعبادَ الله قَلْبِى مُتَيَّمٌ ... بأحسنِ مَنْ صَلَّى وأقبحهم بَعْلا

يَدِبُّ على أحشائها كَلَّ ليلة ... دَبِيبَ القَرَنْبَى يُقْرونَقًا سهلا

« القَرَنْبَى : دُوَيْبَّة على هيئة الخُنْفُس مُنَقَّطة الظَهر ، وربما كان فى ظهرها نقطة حمراء وفى قوائمها طوا على الخُنفُس ، وهى ضعيفة المشى ، ويقرو : يتتبع يقال : قرا

---

(١) الجفر : موضع بنجد .

(٢) حجر : قصبة اليمامة .

(٣) خولة : اسم احدى بنتى مقاتل وروى المبرد وابن قتيبة أن خولة هذه تزوجها يحيى نفسه .

(٤) قوله انكحت عبدين هم ثلاثة كما علمت ولكنه لم يذكر إلا اثنين .

(٥) برزنتها : جعلتها من براذين الخيل وهى ما ليست من نتاج الخيل العِرَاب .

الأرض يقروها قروا : إذا تتبعها وسار فيها ينظر حالها ويتعرف أمرها ، والقا : قطعة من رمل مُحْدَوْدِبَة .

* * *

وقال أعرابى فى المرأة الكريمة تُزَوَّج من وَغْدٍ لئيم وهى أبيات كُثْرٌ نُورِدُ منها ما يلى :

أَيَا عَمْرو كم مِنْ مُهْرَةٍ عَرَبِيَّةٍ ... من الناس قد بُلِّيتْ بِوَغْدٍ يقودُها
يَسُوسُ وما يدرى لها مِنْ سياسةٍ ... يريد بها أشياء ليست تُرِيدها
مُبَتَّلَةِ الأعجاز زانت عُقودَها ... بأحسنَ مما زينتها عقودُها

« بُلِّيتَ أراد بُلِّيتْ فخفف ، ومُبَتَّلة الأعجاز : منقطعة الأرداف ، أى أن أردافها منقطعة عن ظهرها ، وهذا من محاسن المرأة » .

* * *

وقال رجل يذكر امرأة زُوِّجت عن غير كفء :

لقد فَرِحَ الواشونَ أن نال تَعْلَبٌ ... شبيهةَ ظَبْيِ مُقْلَتَاها وجِيدُها
أَضَرَّ بِها فَقْدُ الوَلِيِّ فأصبحَتْ ... بكَفِّ لئيمِ الوالدَيْنِ يَقُودُها

« ثعلب : هو زوجها » .

وقالت هند بنت النعمان بن بشير الأنصارى فى زوجها رَوْحِ بن زِنْبَاعٍ :

وهل هِنْدُ إلا مُهْرَةٌ عَرَبِيَّةٌ ... سليلةُ أفراسٍ تَجَلَّلها نَغْلُ[1]
فإن نُتِجَتْ مُهْـــرًا كريمًا فبالحرَى ... وإن يكُ إقرافٌ فما أنْجَبَ الفَحْلُ[2]

---

(١) نَغْل أصله نَغِلٌ كَكَتِفٍ وهو الخسيس من الناس والدواب ، أرادت الفرس الهجين ويروى بدل نغل : بغل وليست هذه الرواية بشىء لأن البغل لا ينسل .

(٢) المراد بالإقراف هنا أن يكون المهر مقرفا أى نذلا خسيسا والمقرف فى الأصل من أمه عربية وأبوه ليس كذلك .

وكان رَوْحُ بن زنباع سيدَ يمانيـــة الشأم وقائدها وخطيبَها ومُحرِّبَها وشجاعها ، وإنما قالت له هند ذلك لأنه كان قد مسه يوم المَرْجِ أَسْرٌ فافتدى ، فقالت له هند قولَ العربية الشريفة للمولى ، وعيَّرته بالاقراف .

وكان روح قد طلقها وقال : سلط اللهُ عليك بَعْلا يَشْرَبُ الخمر ويَقيؤُها فى حِجرك ، فتزوجها بعده الفَيضُ بن أبى عَقيل الثَّقَفِى ، فكان يسكر ويقيء فى حجرها .

وهذا من هند مثل قول عَقيل بن عُلَّقَةَ الشاعر — وكان غيورا شديد الأنفة فى أمر المصاهرة — وكان عثمان بن حيَّان المُرِّى أميرَ المدنية قال له : زوجنى ابنتك ، فرفع عقيل صوته وقال له : أناقتى أصلحك الله فظن عثمان أنه لم يسمع فرفع صوته : زوجنى ابنتك ، فرفع عقيل صوته وقال : أناقتى أصلحك الله فقال عثمان : أنت أعرابى جِلْفٌ أحمقُ ، وأمرَ باخراجه . . . وهـــذا من عقيل على أنفته لأن عثمان كان قد مسَّه هُرَ أو أباه أَسْرٌ .

وقال المبرد فى الكامل : وكان عَقيلُ بن عُلَّقة من الغَيرة والأَنَفَة على ما ليس عليه أحد علمناه ، فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته على أحد بَنيه ، وكانت لعقيل إليه حاجات ، فقال عَقيل : أمَّا إذْ كُنتُ فاعلا فَجَنِّبْنِى هُجَناءك[1] ، . . وخطب إليه ابنته ابراهيم بن هشام بن اسماعيل بن هشام

---

(١) يريد أبناء الاماء وأمهات الأولاد وهم عبد الله ومسلم والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج أولاد عبد الملك بن مروان ، والهجنة فى الناس والخيل إنما تكون من قبيل الأم فاذا كان الأب عتيقا والأم ليست كذلك كان الولد هجينا ، والقرفة من قبل الأب فاذا كانت الأم عربية والأب ليس كذلك كان الولد مقرفا .

ابن الوليد بن المُغيرة ، وهو خال هشام بن عبد الملك ، والى المدينة ، وكان أبيض شديد البياض ، فرده عقيل وقال :

رَدَدْتُ صحيفةَ القُرَشِيِّ لمَّا أَبَتْ أعْراقُهُ إلاَّ احْمِرَاراً

ومما يروى فى باب الغيرة والأنفة : أنه قيل لعقيل بن عُلّقَةَ : قد عَنَّسْتَ بناتك ، أفما تخشى عليهن الفساد قال : كَلاَّ ، إنى خَلَّفْتُ عندهن الحافظَيْن ، قيل : وما هما قال : الجُوعُ والعُرْى ، أُجيعُهُنَّ فلا يمرحْنَ وأُعَرِّيهِنَّ فلا يبرحْنَ وروى أبو عَمْرو بن العَلاَء أنه حَمَلَ يوما ابنةً له وأنشأ يقول :

إنِّى وإنْ سِيقَ إلىَّ المَهْرُ أَلْفٌ وعُبْدَانٌ وذَوْدٌ عَشْرُ
أَحَبُّ أصْهارى إلىَّ القَبْرُ[1]

وذكر الأصمعى أن عَقيلاً كان لغيرَتِه إذا رأى الرجل يتحدث إلى النساء أخذه ودَهَنَ أرْفاغَه ومَغابنَه بِزُبْدٍ ، وربطه وطرحه فى قرية النمل ، فلا يعود إلى محادثتهم . .

وجاء فى الحيوان للجاحظ : خطب إلى عَقيل بن عُلفَةَ بعضُ بناته رجل من الحُرَقَة — من جُهَينة ، فأخذه فشدَّه قِمَاطاً ، ودَهن إسْتَه بِرُبٍّ وقطه[2] وقرّبه من قرية النمل فأكل النملة حُشْوَةَ بَطْنِه .

وروى الأصمعى أيضاً قال : كان عَقيل بن عُلَّفَةَ فى بعض سَفَره ومعه ابنه العَمَلَّسُ وابنتُه الجَرْباء ، ثم إنهم قَفَلُوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال عقيل :

---

(١) العبدان — بضم العين وكسرها — جمع عبد ، والذود : القطيع من الابل وأحب أصهارى إلى القبر يريد بذلك أن أحب أصهاره إليه موت بناته .

(٢) قَمَطَهُ : جمع بين يديه ورجليه ، والرب : هو الدبس أو هو ثفل الزيت والسمن

قَضَتْ وَطَراً مِنْ دَيْرِ سَعْدٍ وَرُبَّمَا عَلاَ عُرُضٌ ناطَحْـــنَهُ بالجماجم

ثم أقبل على ابنه فقال : أَجِزْ يا عَمَلَّس فقال :

فأصْبَحْنَ بالمـــوَماة يحملْنَ فِتْيَةً نَشاوَى من الإدْلاَجِ مِيلَ العَمَائِم

ثم أقبل عَلَى ابنته فقال : أجيزى يا جَرْباء ، فقالت :

كأنَّ الكَرَى أسْقَاهُمُ صَرْخَدِيَّةً عُقَاراً تَمَشَّتْ فى المَطَا والقَوائِمِ (١)

فأقبل على ابنته يضربها ويقول : والله ، ما وصفتها بهذه الصفة حتى شَرِبتها ، فوثب إخوتها فقاتلوه دونهـــا ، وقد رويت هذه القصة بأبسط من هذا . . .

* * *

ولما أَكْرَه الحجاجُ بنُ يوسف الثّقفى عبدَ الله ين جعفر بن أبى طالب على أن زوجه ابنته استأجله فى نقلها سنة ، ففكر عبد الله بن جعفر فى الانفكاك منه ، فأُلقِىَ فى رُوعِه خالدُ بن يزيد بن معاوية . فكتب إليه يُعْلِمه ذلك ، وكان الحجاج تزوجها بإذن عبد الملك بن مروان وأمهرها ألفَ ألفِ درهم ، فورد على خالد كتاب عبد الله ليلا : فاستأذن من ساعته على عبد الملك فقيل له : أفى هذا الوقت ! فقال : إنه أمر لا يؤخر ، فأُعلِم عبد الملك بذلك ، فأذن له ، فلما دخل عليه قال له عبد الملك : فيم السُّرَى يا أبا هاشم ؟ أَمْرٌ جَلَلٌ لم آمَنْ أن أؤخره فتحدث علىَّ حادثة فلا أكون قضيت حق بيعتك ، قال : وما هو ؟ قال : أتعلم أنه ما كان بين جَبَّيْن من العداوة والبغضاء ما كان بين آل الزبير وآل أبى سفيان ، قال : لا ، قال : فإن تزويجى إلى آل الزبير حلَّل

(١) الكرى : النعاس ، والصرخدية : يريد الخمر ، والمطا : الظهر .

ما كان لهم فى قلبى ، فما أهلُ بيتٍ أحبَّ إلىَّ منهم ، قال : فإنَّ ذلك ليكون قال : فكيف أذنت للحجاج أن يتزوج من بنى هاشم وأنت تعلم ما يقولون ويقال فيهم ، والحجاج من سلطانك بحيث علمت ! فجزّاه خيراً ؛ وكتب إلى الحجاج بعزمةٍ أن يطلقها ؛ فطلقها ، فغدا الناس عليه يُعزّونه عنها ، فكان فيمن أتاه عمرو بن عُتبة بن أبى سفيان ، فأوقع الحجاج بخالد فقال : كان الأمر لآبائه فعجز عنه حتى انتُزع منه ، فقال له عمرو بن عتبة : لا تقل ذا أيها الأمير ؛ فإن لخالد قديماً سَبَقَ إليه ؛ وحديثاً لم يُغْلَب عليه ، ولو طلب الأمرَ لطلبه بجَدٍّ وجِدّ [1] ؛ ولكنه عَلِمَ عِلْماً فسلَّم العلمَ إلى أهله ، فقال الحجاج : يا آل أبى سفيان ؛ أنتم تُحِبُّون أن تحلُموا ؛ ولا يكون الحِلمُ إلا عن غَضَب ، فنحن نُغْضِبُكم فى العاجل ابتغاء مرضاتكم فى الآجل ، ثم قال الحجاج : واللهِ لأتزوجن من هو أمَسُّ به رحماً ثم لا يمكنه فيه شىء . فتزوج أمَّ الجُلاس بنتَ عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العيص بن عبد شمس .

ومِمَّا يُسْتَظْرَف فى هذه القصة أنه لما زوج عبدُ الله بن جعفر [2] ابنتَه

---

(١) الجد البأس والنجدة والنفاذ فى الأمور . والجد : الاجتهاد .

(٢) عبد الله بن جعفر هو بطل الجود والسخاء والظرف أبو محمد عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب وأمُّه أسماء بنت عميس أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث لأمّها ، هاجر أبواه إلى الحبشة ، وهنالك كان مولده قبل هجرة المصطفى بثلاث سنين ، وأتى به أبواه المدينة وله سبع سنين ، وتوفى أبوه فى غزوة مؤتة ، وكان أمر القوم فيهما ، فكفله عمه سيدنا رسول الله ودعا له ، ثم انتقل إلى كفالة أبى بكر ثم إلى كفالة عمه على بن أبى طالب وكان أحد أمراء جنده فى صفين ، وزوجه على بابنته زينب ، وكان كما قلنا علما من أعلام الجود حتى لقب بقطب السخاء ، وفى سبيل جوده احتمل الدَّين حتى رضى أن يزوج ابنته من الحجاج لأنه وفى عنه دينه وأعطاه ألف ألف درهم .

الحجاج ، قيل له : أتُنكحُ ابنتك الحجاج ! قال: أنكحتموه دِينَكم ، والدِّينُ أجلُّ من بَضْعِ المرأة ، أقول وإنما أنكروا تزويج بنت عبد الله بن جعفر الحجاج لأن عبد الله من الشرف وكرم المحتد بالمكان الذى لا يخفى ، أما الحجاج فعلى الرغم من أنه أمير إلا أن أباه كان معلم صبيان وكذلك كان الحجاج نفسه ويروى أنه لما زفت إلى الحجاج نظر إلى عَبْرتها تجول فى عينيها ، فقال : بأبى أنت وأمى مم تبكين ؟ فقالت : أبكى من شَرَفٍ اتَّضَعَ ومن ضَعَةٍ شَرُفَت ، ولما أُمِرَ الحجاج بطلاقها قال لها الحجاج : إن أمير المؤمنين كتب إلىَّ بطلاقك فقالت هُوَ واللهِ أبَرُّ بى مِمَّنْ زوَّجَنيك .. وجاء رجل إلى ابن سيرين ، فقال : رأيتُ حِـــدَأةً على شُرَفِ مسجد رسول الله ﷺ ، فقال له : إن صَدَقَتْ رؤياك فسيتزوج الحجاج من أهل البيت . فكان . ومن الملح فى هذا الباب — أنه قيل لأحد المجان : فلان المؤذن تزوج بابنة فلان المقرئ ! فقال : إنهما سيَلِدَان مصحفاً . . .

وقال حسان بن ثابت لامرأته :

فإما هلكتُ فلا تَنْكِحِى ... خَذُولَ العشيرةِ حَسَّادَها

يرى مجدَه ثلبَ أعراضِها ... لديه ويُبغِضُ من سَادَها

« ثلب أعراضها : عيبها ونقصها ، يقال : ثلَبه يثلِبه ثلْباً : عابَه ونقصَه » .

ومثل قولُ حسان لامرأته قولُ هُدْبَة بن خَشْرَم العُذْرِى لامرأته، ونسوق حديثَه برمَّته[1] :

قال المبرد فى الكامل : ومن الجُفَاة عند الموت هُدْبَة بن خشْرَم العذْرِى ،

---

(١) وانظر قصته كاملة فى الأغانى ج ٢١ وفى خزانة الأدب للبغدادى ج ٤ طبعة بولاق وقد آثرنا حديث المبرد .

وكان قتل زيادة بن زيد العُذرى[١] .

فلما حُمِلَ إلى معاوية تقدّم معه عبد الرحمن أخو زِيادة ، فادعى عليه ؛ فقال له معاوية : ما تقول ؟ قال : أتحب أن يكون الجواب شعراً أم نثرا ؟

قال : بل شعرا فإنه أمتع ، فقال هُدبة[٢] :

فلما رأيت إنمـــا هى ضربة ... من السيف أو إغضاء عين على وَتْرِ[٣]

عمـدت إلى أمير لا يعيرُ والدى ... خَزَايَتَهُ ولا يُسَبُّ به قبرى[٤]

رمينا فرامينـــا فصادف سهمُنا ... منيةَ نفس فى كتـــاب وفى قدر

وأنت أميرُ المؤمنين فمـــا لنا ... وراءك من معدًى ولا عنك من قَصْرِ[٥]

فان تك فى أموالنـا لا تَضِيق بها ... ذراعا وإن صبْرٌ فنصبر للصـــبر[٦]

---

(١) وكانا قد أقبلا من الشام فى ركب من قومهما ، وكانا يتعاقبان سوق الابل ، فرجز كلاهما بأخت الآخر بما يقبح ذكره ، فغضب هدبة حتى أصاب منه غرة فقتله « انظر رجزهما فى الأغانى والخزانة » .

(٢) من كلمة مطلعها :

ألا يالقوم للنوائب والدهر ... والمرء يُرضى نفسه وهو لا يدرى

وللأرض كم من صالح قد تلمأت ... عليـــه فوراته بلمّاعة القفر

فلاذا جـــــلال هبنه لجلاله ... ولاذا ضياع هنّ يتركن للفقر

كلا تلمأت به الأرض وعليه : اشتملت ، والمراد بالضياع هنا العيال .

(٣) الوتر : الذحل ، والثأر .

(٤) خزايته : خزيه وهوانه .

(٥) من معدى : من متجاوَز إلى غيرك ، ولا عنك من قصر : يريد ولا منع فى أمرى عنك .

(٦) فان تك يعنى الدية و إن لم يجر لها ذكر ، والصبر هنا الحبس .

فقال له معاوية : أراك قد أقزرت يا هدية ، قال : هو ذاك ، فقال له عبد الرحمن : أقدْنى ، فكره ذاك معاوية ، وضنّ بهُدبَة عن القتل ، وكان ابن زيادة صغيرا .

فقال له معاوية : أوَمَا عليك أن تشفِىَ صدرَك وتحرِم غيرَك[1] ! ثم وجه به إلى المدينة .

وقال : يُحبَس[2] إلى أن يبلُغَ ابن زيادة ، فبلغ وكان والى المدينة سعيد ابن العاص ، فما وُقِفَ عليه من قسوته قولَه :

ولما دخلت السجْن يا أمَّ مَالك ذكرتك والأطراف فى حلَق سُمْر[3]
وعند سَعيد غيرَ أنْ لَمْ أبحْ به ذكرتُكِ إن الأمر يذكر بالأمر

فسئل عن هذا القول . فقال : لما رأيت ثغر سعيد — وكان سعيد حسن الثغر جدا — ذكرت به ثغرها ، ويقال : إنه عُرِضَ على ابن زيادة عشرُ ديات ، فأبى إلا القَوَدَ ، وكان ممن عرضَ الدياتِ ممن ذُكِرَ لنا الحسَينُ بنُ على وعبد الله ابن جعفر عليهما السلام وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم وسائر القوم من قريش والأنصار .

فلما خُرِجَ به ليُقَادَ بالحرّة[4] جعل يُنشِدُ الأشعارَ ، فقالت له حُبَّى

---

(١) وتحرم غيرك أى من أخذ الدية لو قبلها ، ويروى أنه قال : هل لزيادة ولد ، فقال : نعم واسمه المِسْوَر ، وهو غلام لم يبلغ وأنا عمه وولى أم أبيه فقال معاوية : إنك لا تؤمَن على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق والمسوَرُ أحق بدم أبيه .

(٢) يروى أنه حبس ثلاث سنين أو خمسا أو ستا .

(٣) يريد بالأطراف يديه ورجليه ، والحلق السمر : القيود والأغلال .

(٤) الحرة يريد حرة واقم إحدى حرتى المدَنية وهى الشرقية .

المدينيَّة[١] . ما رأيت أقسى قلباً منكَ ! أتنشدُ الأشعار وأنت تُمْضى بك لتُقتلَ ! وهذه خلفَك كأنها ظبيٌ عطشان تولولُ ! تعنى امرأته ، فوقفَ ووقفَ الناس معه ، فأقبل على حُبَّى وقال :

ما وجَدَتْ وجْدِى بها أمٌّ واحِدِ ... ولا وجدَ حُبَّى بابن أُمِّ كِلاَب[٢]

رأته طويل الساعدين شمَرْدَلا ... كما انتعتَتْ من قوة وشباب[٣]

فأغلقت حُبَّى البابَ فى وجهه وسبَّتْه ، وعرَضَ له عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت الشاعر فقال: أَنْشِدنى ! فقال له : أعلى هذه الحال ! قال : نعم ، فأنشده :

ولستُ بمفْرَاح إذا الدهر سَرَّنى ... ولا جازع من صرفه المتقلبِ

ولا أتبَغَّى الشرَّ والشرُّ تاركى ... ولكن متى أُحْمَلْ على الشرِّ أَرْكَبِ

وحرَّ بَنِى مولاىَ حتى غشيتُه ... متى مايحرِّبْكَ ابنُ عمك تَحْرَبِ[٤]

---

(١) حبى — بضم الحاء وتشديد الباء اسم امرأة اشتهرت بشدة الشبق ، تزوجت وهى عجوز شابا فى مقتبل السن يقال له : ابن أم كلاب ، وضرب بها المثل : فقيل أشبق من حبى ، والمدينية باثبات ياء المدينة قال بعض اللغويين : إذا أنسبت إلى مدينة الرسول قلت مدنى و إلى مدينة المنصور واصفهان وغيرهما : مدينى و إلى مدائن كسرى : مدائنى للفرق بين النسب .

(٢) وجد به وجدا : أحبه يقول إن حبى زوجتى لم يبلغه حب أحد ولا حب أم وحيدها ولا وحبُّ حُبَّى زوجها .

(٣) الشمردل : الفتى القوى الجلْد ، انتعتت أى وصُفت ومصدره الانتعات وهو الوصف كالنعت .

(٤) حربنى : حمله على الغضب ، ومولاء : ابن عمه ، وذلك أن زيادة من قبيلة هذيل ، وتحرب من حرب الرجل بالكسر حربًا — بالتحريك — اشتد غضبه .

فلما قُدِّمَ نظر إلى امرأته ، فدخلته غَيْرَة ، وقد كان جُدِع فى حربهم ، فقال :

أَقِلِّى علىَّ اللومَ يا أُمَّ يَوْزَعَا ... ولا تجزعى مما أصابَ فأوجعا

وإن يكُ أنفِى بانَ منه جَمالُه ... فما حَسَبِى فى الصالحين بأجدَعَا[1]

فلا تنكحِى إن فرَّقَ الدهرُ بيننا ... أَغَمَّ القَفَا والوجهِ ليس بأَنْزَعَا[2]

ضَرُوبًا بِلُحْيَيْهِ على عظم زَوره ... إذا الناس هَشُّوا للفعال تَقَنَّعَا[3]

وَحُلِّى بذِى أُكْرُومَةٍ وحَمِيَّةٍ ... وَصَبْرٍ إذا ما الدهرُ عَضَّ فأَسْرَعَا

فقالت : قِفُوا عنه ساعة ، ثم مضت وقد اصطلمت أنفها .

فقالت : أهذا فعلُ من له فى الرجال حاجة ؟ فقال : الآنَ طابَ الموت[4]

ثم أقبل على أبويه فقال :

---

(١) أصل الجدع : القطع يقال : جدع فلان أنفه وماشاكله : قطعهُ وجملة قوله إن حسبَه فى الصالحين ليس بمقطوع يريد أنه معرق له فى الحسب أى المجد وكرم الآباء .

(٢) الغمم : أن يسيل الشعر حتى يضيق الوجه والقفا ، والنزع : انحسار مقدم شعر الرأس عن جانبى الجبهة ، والعرب تحب النزع وتتيمن بالأنزع وتذم الغمم وتتشاءم بالأغم وتزعم ان الأغم القفا والجبين لا يكون إلّا لئيما خسيسا نقيض الكريم .

(٣) الزور أعلى وسط الصدر ، وضروبا بلحييه على غطم زوره يريد أنه من شدة دهشه يتلجلج و يضطرب فيصطك لحياه بزوره ، وهشوا : انبسطوا وتقنع : تستر أى أخفى نفسه متأخرا عن المكارم ، والفعال بفتح الفاء : الفعل الحسن ، يقول : إنه فَعِيلٌ متأخر عن المكارم .

(٤) قال النوفلى : حدثنى أبى عن رجل من عذرة عن أبيه قال إنى لفى بلادنا يوما فى بعض المياه فاذا أنا بامرأة تمشى أمامى وهى مدبرة ولها خَلْق عجيب ، من عجز وهيئة وتمام جسم وتمام قامة ، وإذا صبيان قد اكتنفاها يمشيان ، فتقدمتها ، والتفت إليها ، وإذا أقبح منظر ، وإذا هى مجدوعة الأنف ، مقطوعة الشفتين ، فسألت عنها ، فقيل : هذه امرأة هدْبة تزوجت بعده رجلا أولدها هذين الصبيين .

إبْلِيانى اليومَ صـــبراً منكما إنَّ حُزناً منكما اليوم لَشَرّ[1]
ما أظن المـــوتَ إلا هيِّناً إن بعد الموت دارَ المستَقَرّ

ثم قال :

أذا العرش إنى عائذٌ بك مؤمن مُقِرٌّ بزَلّاتى إليكَ فقـــيرُ
وإنى وإن قالوا أميرٌ مسلَّطٌ وحجّابُ أبوابٍ لهن صَرِيرُ
لَأعلم أن الأمر أمرُك إن تُدِنْ فربٌّ وإنْ تغفِر فأنت غفور

ثم قال لابن زيادَة : أثبتْ قدميك وأجدْ الضربَة ، فإنى أيتَمْتُكَ صغيراً وأرملت أُمَّكَ شابَّةً ، ثم سأل فكَّ قيودِه ففَكَّتْ ، فذلك حيث يقول :

فإن تقتلونى فى الحديد فإننى قتلت أخاكم مطلقاً لم يقيَّدِ

* * *

وخطب رجل إلى ابن عباس يتيمةً له ، فقال ابن عباس : لا أرضاها لك قال : ولِمَ وفى حجرك نشأَتْ ؟

قال : لأنها تتشرَّفُ وتنظرُ[2]

---

(١) إبليانى بكسر الهمزة والباء الموحدة أى امتحانى ، قال فى القاموس : البلاء يكون محنة ويكون منحة .

(٢) رويت هذه الحكاية على وجه آخر وهو : كان فى دار ابن عباس يتيمة فخطبها رجل فقال له : لا أرضاها لك ، فقال الرجل : ولكنى رضيت بها ، فقال : الآن لا أرضاك لها ، أمّا قول ابن عباس فى الرواية الأولى : لأنها تتشرف وتنظر فأظنه يريد أن يقول : إنها الآن تتشرف بانتسابها الىّ ثم تنظر حتى تصيب مَن يُغنى غَنائى ليتشرف به ، فلما قال الرجل : وما هذا قال له ابن عبّاس : الآن لا أرضاك لها ، أو لعل ابن عباس يريد أن يقول إنها ليتيمها تشعر بأنها فى حاجة الى من ينفى عنها هذا النقص بتشريفه إياها أى أنّ يتيمته

قال : وما هذا ؟

فقال ابن عباس : الآنَ لا أرضاك لها . . .

* * *

وخطب لَقِيطُ بن زُرَارَةَ إلى قيس بن خالد ذى الجَدَّيْنِ الشَّيْبَانِى ، فقال له قيس : ومن أنتَ ؟ قال : لقيطُ بن زُرَارَة ، قال : وما حملك أن تخطب إلىَّ عَلَانِيَة ؟ فقال : لأنى عرفتُ أنى إن عاتبتُكَ لم أفضحْكَ ، وإن سارَرْتُكَ لم أخدَعْكَ .

فقال : كفءٌ كريم ، لا تبيتُ واللهِ عَزَبًا ولا غريباً ، فزوجه ابنته وساقَ عنه[1] .

وخَطَبَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ أُمَّ أَبَانٍ بنتَ عَتْبَةَ بن ربيعة ، بعد أنْ مات عنها يَزيد بنُ سُفيان ، فقالتْ : لا يَدْخُلُ إلاّ عابسًا ولا يَخْرُجُ إلاّ عابسًا ، يُغْلِقُ أبْوابَهُ وَيُقِلُّ خَيْرَه ؛ ثُمَّ خَطَبَهَا الزُّبَيرُ ، فقالت يَدٌ له على قُرونى ويَدُ له فى السَّوْطِ ، وخَطَبَهَا عَلِىٌّ ، فقالت : ليس للنساء منه حَظٌّ ، إلاّ أنْ يَقعُدَ بين شُعَبِهِنَّ الأَرْبع لا يُصِبْنَ منه غيره ، وخَطَبَهَا طَلْحَةُ فأجابت فتزوَّجَهَا ، فدَخَلَ عليها عَلِىُّ ابن أبى طالب فقال لها . رَدَدْتِ مَن رَدَدْتِ منـــا وتزوَّجْتِ ابن بِنْتِ الحَضْرَمِىّ ! فقالت : القضاء والقدرُ ، فقال : أمَا إنَّكِ

يرغب فى أن تتشرف بتزوجها من رجل شريف ثم هى تنظر أى تؤخر زواجها حتى تصيب الرجل الكفء فلما قال الرجل وما هذا ، أى ما قيمة هـــذا قال ابن عباس : الآن لا أرضاك لها .

(١) وساق عنه : أى دفع عنه المَهْر .

تَزَوَّجْتِ أَجْمَلَنَا مَرْآةً وأَجْوَدَنَا كَفًّا وأَكْثَرَنَا خيرًا على أهله .

* * *

وخطبَ زِياد بن أبيه إلى سعيد بن العاص يخطبُ إليه أُمَّ عثمان بنت سعيد وبعث إليه بمال كثير فلما قرأ الكتاب أمرَ حاجبَه بقبض المال والهدايا ، فلما قبضها أمرَ بقسمها بين جُلَسائه ، فقال الحاجب : إنَّها أكثرُ من ذلك ، فقال : أنا أكثرُ منها ، ففعلَ ، ثُمَّ كَتَبَ إلى زيادٍ : بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن الإنسانَ ليطغَى أنْ رآه استغنَى . أقول : وإنما فعل ذلك سعيد لأن زيادًا يُزَنُّ — يتَّهم — بأنَّه لِزِنْيَةٍ ، وإن كان قد أصبح أميرًا ، وإن كان قد استلحقه مُعاوية .

* * *

وخَطَبَ خالدُ بنُ صَفْوان امرأةً فقال : أنا خالد بن صَفْوان ، والحَسَبُ على ما قد علمته ، وكثرةُ المال على ما قد بلغك ، وفى خِصالٌ سأُبَيِّنُها لك فتُقْدِمِينَ عَلَىَّ أَوْ تَدَعِينَ ؛ قالت : وما هِىَ ؟ قال : إنَّ الحُرَّةَ إذا دَنَتْ منِّى أمَّلْتُنِى ، وإذا تباعَدَت عنى أعَلَّتْنِى ، ولا سَبيلَ إلى درهمى ودِينارى ، ويأتِى على ساعةٌ من الحَلال لَوْ أنَّ رأسِى فى يَدِى نَبَذْتُه ، فقالت : قد فهمْنا مَقالَتَك ووَعَيْنا ما ذَكَرْتَ ، وفيك بحَمْدِ الله خصالٌ لا تَرْضاها لبنات إبليسَ ، فانصَرِف رحِمَك الله . . .

* * *

وقالَ رجل لابن هُبَيْرَة : أنا ابنُ الذى خَطَبَ إلى مُعاوِيَة ، فقال ابن هُبَيْرَة : أفزَوَّجَهُ ؟ قال : لا ، فقال : ما صنَعْتَ شيئًا . . .

* * *

وقيل لابنة الخُسّ — وهى هند ابنـــة الخُسّ الايادية التى اشتهرت بفصاحتها — ألا تتزوّجين ؟ فقالت : بلى ، لا أريدُه أخا فلان ولا ابن فلان ولا الظَّريفَ المُتظرِّف ولا السَّمِينَ الألحم [1] ولكن أريدُه كسوبا إذا غدا ، ضحوكا إذا أتى .

ومِن طَريف ما يصحّ أن نوردَه فى هذا الباب ونختمه به ما أوردَهُ المُبرّد فى الكامل قال: وقد كان المُغيرة بن شعْبة وهو وَالِى الكُوفةِ — لمعاوية — سارَ إلى دَيْرِ هِند بنت النعمان بن المُنذر ، وهى فيه عَمْياء مترهّبةً — على دين النّصرانية — وكانت بنت تسعين سنة — فاستأذَن عليها ، فقيل لها : أميرُ هذة المَدَرَةِ بالباب ، فقالت : قولوا له :

أمِن وَلَد جَبَلَةَ بن الأيْهَم أنتَ ؟ قال : لا ، قالت : أفمِنْ ولَدَ المُنذر بن ماء السماء ؟ قال : لا ، قالت : فمَن أنتَ ؟ قال : المُغيرَة بن شُعْبَةَ الثقفىّ ، قالت : فما حاجَتُك ؟ قال : جئتُكِ خاطباً ، قالت : لو كنتَ جئتَنى لجمالٍ أو لمالٍ لأطلبْتُكَ — أى أعْطيْتك ما تَطْلُب — ولكنكَ أردتَ أنْ تتشرَّف بى فى محافِلِ العَرَب فتقول : نَكَحْتُ ابنَةَ النُّعمان بن المُنذر ، وإلاَّ فأىُّ خَيْرٍ فى اجْتماع أعْوَرَ وعَمْياء ! [2] فبعثَ إليهـــا : كيفَ كانَ أمْرُكُمْ ؟ فقالت : سأختَصِرُ لكَ الجواب ، أمْسَينا مَساءَ وليس فى الأرْضِ عَرَبِىٌّ إلاَّ وهُوَ يَرْغَبُ إلينا ويَرْهَبُنَا ، ثم أصبحنا وليسَ فى الأرضِ عربىٌّ إلاَّ ونحن نرغَبُ إليه ونَرْهَبُه ، ثم انصرفَ المُغيرة . . .

---

(١) الألحم : كثير اللحم .

(٢) هو المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود الثقفى ، شهد عمرة الحديبية وبيعة الرضوان وكانَ من دُهاة العرب وكانَ المغيرة أعور .

حديث البنات الثلاث وصفة ما يحببن من الأزواج :

قالت عجوز من العرب لثلاث بنات لها : صِفْنَ ما تُحْبِبْنَ من الأزواج ، فقالت الكبرى : أريدُ أَرْوعَ بَسَّاماً ، أَحَذَّ مجذاماً ، سَيِّدَ نادِيه ، وِثمالَ عَافِيه ، ومُحْسِبَ رَاجيه ، فِناؤه رَحْب ، وقِيادُه صَعْب ، وقالت الوُسطى : أُريدُ عالِيَ السَّناء ، مُصَمِّمَ المَضاء ، عَظِيمَ نار ، مُتَمِّمَ أَيْسار ، يُفِيد ويُبِيد ، ويُبْدِئُ ويُعيد ، هو فى الأهل صبيّ ، وفى الجيش كَمِيّ ، تَسْتَعْبِدُه الخليلة ، وتُسَوِّدُه الفَضيلة ؛ وقالت الصُّغْرَى : أُريده بازِلَ عَام ، كالمُهَنَّدِ الصَّمْصام ، قِرَانُهُ حُبور ، ولِقـــاؤه سُرُور ، إنْ ضَمَّ قَضْقَضَ ، وَإن دَسَرَ أَغْمَضَ وإنْ أَخَلَّ أَحمَضَ ؛ قالت أُمُّها : فُضَّ فوكِ ! لقد فَرَرْتِ لِي شِرَّةَ الشباب جَذَعَة .

« الشرح : الأَرْوع : الذى يَرُدعُكَ جَمَالُهُ وقال بعضهم : الأروع والنجيب واحد ، وهما الكريم ، والأَحَذُّ هاهنا الخفيف السَّريع ، والجذام : مفعال من الجذم وهو : القَطْع يريد : أنه قطّاعٌ للأمُور ، والنادى والنَّدِيّ : المَجْلس ، والثِّمال : الغِيَاث ، وثمال القوم غِياثُهُم ومَن يَقوم بأمْرهم ؛ وعافيه : الذين يَعْفُونَه أى يأتُونَه سائِليه ، ومُحْسِب : كافٍ وفَنَاؤه رَحْب : أى فِناء داره واسع ، والسَّناءُ من الشَّرَف مَمْدُود ومن الضَّوء مقصور ؛ والمُصَمِّم من الرجال : الذى يَمضى فى الأمور لا يَرُدُّ عَزْمَهُ شىء ، وعظيم نار : أى أنه يوقد النار العظيمة لترشد الناس إلى رحابه فيقريهم ، ومتمم أيسار ، فإنّ أكثرَ الأيْسارِ[1] سَبْعة على عَدَدِ القِدَاح ، فَيأخُذ كُلُّ رَجُلٍ قِدْحاً ، فإذا فعلوا ذلك توخَّدوها فاذا نقص عددهم عن ذلك أخذ الرجل الكريم منهم ما فَضَلَ من القِداح فيكون له حظ الفائز منها وعليه غُرْم الخائب فكأنه قد تمّمَ عدد الأيسار بذلك ، وكانت العرب تَعُدُّ ذلك فضيلة وتَتَمدّح به ، وقال ابن الأعرابى : إذا كان الرجل يفوزُ قِدحُه مرّةً بعد أخرى ويُطْعِم اللحم سُمِّى مُتَمِّماً ، وبذلك سُمِّى مُتَمِّم بن نُويرة الشاعر ، ويُبدئُ ويعيد . ذو حيلة ، وفى ضده يقال : فلانٌ ما يُبدِئُ وما يُعيد .

(١) الأيسار جمع يَسَر ويقال ياسر وهو الذى يدخل مع القوم فى القداح .

اذا لم يكن له حيلة ، وكسى جرى مُقْدِم شجاع ، والحليلة : الزوجة ، وقول الصغرى : أريده بازل عام تريد : تامّ الشباب كامل القوّة ، لأن البعير أتمّ ما يكون شبابا واكملهُ قُوَّة ، اذا كان بازل عام[1] ؛ وقضقض : أى حطَمَ كما يُقَضقِضُ الأسد الفريسة وهو أن يحطِمَها ويَنفُضَها فتَسْمَعَ لِعِظامِها صَوتا ، والأسَدُ القضقاض الحطّام ؛ ودَمَرَ : دَفَع ، الإغماض الايلاج الشديد ؛ و إن أخَلّ أحمض : فعَنْ سعيد بن يسار قال : قلت لابن عُمَرَ : كيف ترى فى التحميض ؟ قال : وما التحميض ؟ قلت : أن يأتى الرجُلُ المرأة فى دُبُرها ، قال : أو يفعَلُ ذلك أحد من المسلمين ؟ أقول : والخُلّة فى الأصل ضَرب من النبات حُلْوٌ ، والحَمْضُ نبات ملِحٌ ، واذا شَبِعَت الإبل من الخُلّة أكلت الحَمْض ، والعرب تقول الخُلّةَ خبز الإبل والحَمْضُ فاكهتُها ، ومِن ذا قالوا : تَحمَّض الرجل : اذا تَحوَّل من شىء إلى شىء ، واذا أتى الرجُلُ المرأة فى غير مأتاها الذى يكون موضع الولد فقد حَمَّض تحميضا كأنّه تَحوَّل مِنْ خَير المكانَين إلى شرّهما شَهْوَةً معكوسةً كفعل قوم لوط الذين اهلكهم الله بحجارةٍ من سِجّيل ، ويقال للتفخيذ فى الجماع : تحميض ، ويقال : قد أحْمَض القوم إحماضاً : إذا أفاضوا فيما يُؤنِسُهم من الحديث والكلام ، وكان ابنُ عباس يقول إذا أفاضَ مَن عِندَه فى الحديث بعد القرآن والتفسير . أحمضُوا ، وذلك لما خاف عليهم المَلالَ أحبّ أن يُريحهم ، فأمَرَهم بالإحماض بالأخْذِ فى مُلَح الكلام والحكايات » .

امرأتان من حكيمات العرب تصفان الرجال والنساء :

وافت جُمْعَةُ بنتُ حابس وهند بنةُ الخُسّ[1] سوقَ عكاظ فاجتمعتا

---

(١) جمعة بنت حابس وهند بنت الخسّ : حكيمتان يضرب بهما المثل فى الفصاحة والحكمة والدهاء قال الجاحظ فى البيان والتبيين : من أهل الدهاء والنكراء — الدهاء — ومن أهل اللسن واللقن والجواب العجيب والكلام الصحيح والأمثال السائرة والمخارج العجيبة هند بنت الخسّ وهى الزرقاء وجمعة بنت حابس .

بين يدَى القَلَمَّس[١] الكِنَانِيِّ ، فقال لهما : إنى سائلكما لأعلمَ أيُّكما أبسَط لسانًا ، وأظهرُ بيانا ، وأحسنُ للصِّفَة إتقانًا ، قالتا : سَلْنا عما بَدَا لك ، فستجدُ عندنا عُقُولا ذكيّة ، وألسنَة قويّة ، وصِفَة جَلِيَّة : ثم سألهما عن أشياء نورد منها ما يَعْنِينا ، قال : فأىُّ الرجال أحبُّ إليكِ يا جمعة ؟ قالت : أُحِبُّ الحرَّ النَّجِيب ، السَّرِىَّ القريب ، السَّمْحَ الحسيب ، الفطِنَ الأريب : المِصْقَعَ الخطيب ، الشُّجاعَ المهيب ، قال القلمَّس : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : وصفَتْ رجُلاً سيِّدا جوادا ، ينهض إلى الخير صاعدا ، ويسُرُّكَ غائبًا وشاهِدًا ، وغيره أحبُّ إلىّ منه ، قال : فقولى ، قالت : أحبُّ الرحْبَ الذراع ، الطويلَ الباع ، السَّخِىَّ النفَّاع ، المنيعَ الدَّفَاع ، الدهْمَىَّ المطاع[٢] ، البطلَ الشجاع ، الذى يحلُّ باليفاع[٣] ، ويُهين فى الحمد المتـــاع ، قال : كلتا كما محسنة ، فأىُّ الرجال أبْغَضُ إليكِ يا جمعة ؟ قالت . أبْغَضُ السَّآلة اللئيم ، البغيض الزنيم[٤] الأُشوه الدَّميم ، الظاهر العُصُوم . الضعيف الحيزوم[٥] قال . كيف تَسْمَعين يا هند ؟ قالت ذكرتْ رجلا خَطَرُه صغير[٦] ، وخطبه يَسِير ، وعيبه كثير ،

---

(١) القلمس : سيد من سادات كنانة وحكيم من حكماء العرب وكاهن من كهانهم وكان ينْسَأ الشهوز فيحل حرامها ويحرم حلالها فأبطل الله النسىء بقوله سبحانه (إنما النسىء زيادة فى الكفر) .

(٢) الدهمى : الكريم .

(٣) اليفاع : المرتفع من الأرض وإنما يحل الكريم باليفاع حتى يرى السَّارون نادره فيقبلون عليه ، والزنيم : الشرير أو الدعى الذى ينتسب إلى القوم وليس منهم .

(٤) العصوم : بقايا الخضاب .

(٥) الحيزوم : الصدر وضعفه كناية عن الحمق وضيق الذراع .

(٦) الخطر : القدر والمنزلة .

وأنت ببغضه جدير ، وغيره أبغض إلىّ .

قال : فقولى ، قالت : أبغضُ الضفيف النخاع [١] القصير الباع ، الأحمق المضياع ، الذى لا يُكرَمُ ولا يُطاع ، قال القلمس . كلتا كما محسنة ، فأى النساء أحب إليك يا جمعة ؟ قالت . أُحِبُّ الغَرِيرة العذراء [٢] الرُّعبوبة العيطاء [٣] ، المكورَة اللغّاء [٤] ذات الجمال والبهاء . والسِّتر والحياء ، البَضَّة الرَّخصة [٥] كأنها فِضة بيضاء ، قال . كيف تسمعين يا هند ؟ قالت . وصفتْ جارية — فتاة — هى حاجة الفتى ، ونُهية الرضا [٦] ، وغيرها أحَبُّ إلىّ ، قال : فقولى ، قالت : أحِبُّ كُلَّ مشبَعَة الخلخال [٧] ، ذات شكل ودلال [٨] ، وظَرف وبهاء وجمال ، قال القلمس : كلتا كما محسنة ، فأى الناس أبغض إليك يا جمعة ؟ قالت : أبغِضُ كل سلفع بَذِيّة [٩] ، جاهلة غبية ، حريصة دنيّة ، غير كريمة ولا سرية [١٠] ، ولا ستِّيرة ولا حيِّية ، قال : كيف تسمعين ياهند؟ قالت وصفتْ امرأة صاحبها خَليقٌ ألاَّ يَصلُحَ له حال ، ولا ينعَم له بال ، ولا

---

(١) تريد بالضعيف النخاع : العاجز الذى يضيق بالهم ولا يطيقه .

(٢) الغرِيرة : الطيبة القلب التى لا تعرف الشر .

(٣) الرعبوبة : الفتاة البيضاء الحلوة اللينة الناعمة ، والعيطاء :الطويلة العنق .

(٤) المكورة : الممتلئة الساقين فى بياض ولين ، واللغاء : السمينة الطويلة .

(٥) البضة : اللينة الجسد الناعمة الجلد الممتلئة ، والرخصة : اللينة الناعمة كذلك .

(٦) نهية الرضا : غاية الرضا .

(٧) اشباع الخلخال : كناية عن امتلاء الساق .

(٨) الشكل : الجمع بين الحمرة والبياض .

(٩) السلفع من النساء : الشديدة الصخب السيئة الخلق .

(١٠) السرية : الشريفة .

يُثْمِرَ له مال ، وغيرها أبغضُ إليّ ، قال : فقولى، قالت: أبغضُ المُتَجَرِّفة [١] الشَّوْهاء المنفوخة الكَبْداء [٢] ، العِنْفِصَ الوقصاء [٣] الحمشَةَ الزلاَّء [٤] ، التى ين ولدت لم تنجب ، وإن زُجِرت لم تعتتب ، وإن تُرِكَتْ طَفِقَتْ تصخَب ، فقال القلمس : أحسنتما وأجملتما .

---

(١) المتجرفة : الشديدة الهزال .

(٢) المنفوخة : المتسعة البطن ، والكبداء : الضخمة الوسط البطيئة المشى .

(٣) العنفص : البذيئة القليلة الحياء القليلة الجسم الكثيرة الاختيال ، والوقصاء : القصيرة العنق .

(٤) الحمشة : الدقيقة الساق ، والزلاء الدقيقة الوركين .